السواء . لقد أفاضت السورة الكريمة فى ذكر أراجيف المنافقين أثناء غزوة الأحزاب كما أفاضت فى ذكر مرض نفوسهم فى غير وقت الحرب ، حتى كان هذا التهديد العنيف لهم فى هذه الآيات الكريمة التى تعتبر من أعنف ما وُجِّه للمنافقين فى القرآن الكريم من تهديد ووعيد ، إن استمروا فى طريقهم غير القويم .

وانظر إلى لفظة « المدينة » التى تستعملها الاية الكريمة ، مظهرا من مظاهر تكريم الله تعالى للمصطفى ﷺ وحبه له . ويبدو ذلك الحبّ حينما نتبين أنّ الآية الكريمة إنّما تستعمل اللفظة الحبيبة إلى المصطفى ﷺ « المدينة » بينما جاء على لسان المنافقين فى الآية الكريمة الثالثة عشرة لفظة « يثرب » غير الحبيبة إلى المصطفى ﷺ .

وانظر إلى التهديد العنيف من الله تعالى للمنافقين إن لم يرعووا إلى الطريق المستقيم ، طريق الهدى والفلاح : **﴿ لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾** إنّ التهديد بشير إلى درجتين من العمل الإيجابى العنيف ضد المنافقين إن استمروا على نفاقهم . وإنّ الدرجة الثانية مبنية على الأولى فهى أعنف منها ، الدرجة الأولى أن يسلط الله تعالى المصطفى ﷺ والمؤمنين على المنافقين . وتكون نتيجة هذا التسليط الممثل للدرجة الأولى إرغام المنافقين على طلب الجلاء عن المدينة المنورة كما حصل لليهود الذين استمروا يكيدون للمسلمين . وهذا الجلاء يمثل الدرجة الثانية للتهديد والوعيد .

لقد عرفنا رأى جمهرة العلماء فى الإغراء من القول لنغرينك بهم . « ابن عباس : قوله لنغرينك بهم . يقول : لنسلطنك عليهم »[1] قتادة : لنغرينك بهم أى لنحملنك عليهم ولنحرشنك بهم[2] ولام لنغرينك لام القسم[3] . وماذا قال الجمهور عن القول : « ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » ؟ إنّ الضمير من « فيها » يعود إلى المدينة المنورة[4] التى جاءت الإشارة إليها صراحة فى الآية الكريمة . فلما أعطف ثم ، يقول الزّمخشرى مجيبا[5] : « وإنما عطف بثم لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم وأعظم

---

(١) تفسير الطبرى ٣٤/٢٢ والبحر المحيط ٢٥١/٧

(٢) تفسير الطبرى ٣٤/٢٢

(٣) تفسير القرطبى ٥٣٢٩

(٤) نص على ذلك قتادة . تفسير الطبرى ٣٤/٢٢ وانظر البحر المحيط ٢٥١/٧

(٥) الكشاف ٥٥٠/٢

من جميع ما أصيبوا به ، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه » . ويضيف أبو حيّان[1] : « ولم يكن العطف بالفاء ، لأنّه لم يقصد أنّه متسبب عن الإغراء بل كونه جوابا للقسم أبلغ ، وكان العطف بثم ، لأن الجلاء عن الوطن كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به ، فتراخت حالة الجلاء عن حالة الإغراء » وحينما تتراخى حالة الجلاء عن حالة الإغراء يكون معنى ذلك أنّ ثمة فاصلا زمنيا كافيا كى يروا فيه رأيهم ويعودوا إلى جادّة الصواب ، وقد أشعرت « ثم » بذلك الفاصل الزمنى الذى يبدو منه أن المنافقين قد استفادوا منه، فقد استمر حتى غزوة تبوك ونزول سورة براءة الفاضحة للمنافقين . ولم يتأخر بعدها عن الغزو شخص واحد من سكان المدينة المنورة ومن حولها . « ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا . يقول : ثم لننفينهم عن مدينتك فلا يسكنون معك فيها إلاّ قليلا . من المدّة والأجل حتى ننفيهم عنها فنخرجهم منها »[2] ويقول أبو حيّان[3] : « إلاّ قليلا : أى جواراً قليلا أوزمانا قليلا أو عدداً قليلا .. والمعنى أنهم يضطرون إلى طلب الجلاء عن المدينة خوف القتل » ويقول الزمخشرى[4] : « المعنى لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم . والفسقة عن فجورهم . والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التى تسوؤهم وتنوؤهم ثمّ بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة وإلى ألاّ يساكنوك فيها إلاّ زمنا قليلا ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم . فسمى ذلك إغراءً وهو التحريش على سبيل المجاز»قال تعالى: ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا** ﴾.

ونتحوّل إلى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : ﴿ **ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا** ﴾ . فما معنى القول « ملعونين » ؟ معناه مطرودين من رحمة الله تعالى فى الدّنيا والآخرة . فاللعن معناه الطرد من رحمة الله تعالى والإبعاد والعياذ بالله . وانتصب معلونين على الذم . قاله الطبرى[5] أو على الحال[6] : « قال الزمخشرى والحوفى

(١) البحر المحيط ٢٥١/٧
(٢) تفسير الطبرى ٣٤/٢٢
(٣) البحر المحيط ٢٥١/٧
(٤) الكشاف ٥٥٠/٢
(٥) البحر المحيط ٢٥١/٧ وتفسير القرطبى ٥٣٢٩ والكشاف ٥٥٠/٢
(٦) تفسير ابن كثير ٥١٩/٣ وتفسير القرطبى ٥٣٢٩ والكشاف ٥٥٠/٢

وتبعهما أبو البقاء : يجوز أن يكون حالا من الضمير فى لا يجاورونك كما قال ابن عطية[1] وقال ابن كثير[2] : « ملعونين : حال منهم فى مدّ إقامتهم فى المدينة مدّة قريبة مطرودين مبعدين » ويقول الطبرى[3] : « مطرودين منفيين . أينما ثقفوا يقول : حينما لقوا من الأرض أخذوا وقتلوا لكفرهم بالله تقتيلا ، قتادة ملعونين على كل حال[4] وفى الإمكان أن ننظر إلى القول « ملعونين » من زاويتى المجاورة والرّحيل معاً ، وبذلك تكون لعنة الله تعالى مرافقة للمنافقين فى حلهم وترحالهم . وانظر إلى الجملة التى تستعمل فى حق المنافقين إن استمروا على نفاقهم فاستحقوا لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين « أخذوا » والملاحظ أنّ هذه الجملة يرتبط بها فى القرآن الكريم الأخذ بشدة وعنف وقسوة . وكل ذلك من متعلقات العذاب . وقد جاء فى سورة هود[5] قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إنّ أخذه أليم شديد ﴾ ونحن نستطيع أن نفهم من جملة«أخذوا » هنا حصار هؤلاء المنافقين ومقاتلتهم وإلقاء القبض على من أثخنته الجراح منهم ومن استسلم ، وأخذهم بعنف وشدّة وتقتيلهم شر قتلة . وانظر إلى صيغة فعّل التى جاء فيها الفعل المبنى للمجهول « قتلوا » وهى صيغة تدل على تكثير الفعل كما هو معروف أى تكثير القتل فيمن استمرّ على نفاقه وأظهره بإيذاء الله تعالى ورسوله الكريم والمؤمنين ، كما تدل بسبب عدم ذكر الفاعل على التهويل ، لأنّ الخيال يجتهد فى تصور جند الله تعالى المأمورين بتقتيل هؤلاء المنافقين تقتيلا ﴿ وما يعلم جنود ربك إلاّ هو ﴾[6] « قرأ الجمهور قتلوا بتشديد التاء . وفرقة بتخفيفها ، فيكون تقتيلاً مصدراً على غير قياس المصدر[7] ويقول أبو حيّان بشأن انتهاء المنافقين عن نفاقهم[8] : « والظاهر أنّ المنافقين انتهوا عما كانوا يؤذون به الرّسول والمؤمنين وتستّر جميعهم وكفوا خوفا من أن

---

(١) البحر المحيط ٢٥١/٧
(٢) تفسير ابن كثير ٥١٩/٣
(٣) تفسير الطبرى ٣٥/٢٢
(٤) تفسير الطبرى ٣٥/٢٢
(٥) الآية ١٠٢
(٦) سورة المدثر ٣١
(٧) البحر المحيط ٢٥١/٧
(٨) البحر المحيط ٢٥١/٧

يقع بهم ما وقع القَسَمُ عليه وهو الإغراء والجلاء والأخذ والقتل . وقيل : لم يمتثلوا للانتهاء جملة . ولا نفذ عليهم الوعيد كاملا . ألا ترى إلى إخراجهم من المسجد ونهيه عن الصلاة عليهم وما نزل فيهم فى سورة براءة؟ ومعروف أنّ المنافقين استمر نفاقهم بعد ذلك ، وإن اختلفت درجاته حتى غزوة تبوك فى رجب فى السنة التاسعة من الهجرة . يقول ابن تيمية[1] فلما توعّدوا بالقتل إذا أظهروا النفاق كتموه » . ومعروف كذلك أن أكثر سور القرآن الكريم عنفاً بالمنافقين وفضحا لهم سورة براءة . وقد جاء فى السورة الكريمة قوله تعالى[2] : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا** ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنّما كنّا نخوض ونلعب . قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة بأنهم كانوا مجرمين** ﴾ . لقد ذكر فى حق المنافقين الكفر بعد الإسلام والإيمان يقول ابن تيمية[4] فى هذا الشأن : « وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد إسلامهم غير الذين كفروا بعد إيمانهم ، فإنّ هؤلاء حلفوا بالله ما قالوا . وقد قالوا كلمة الكفر التى كفروا بها بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا[5] وهو يدلّ على أنهم سعوا فى ذلك فلم يصلوا إلى مقصودهم ، فإنّه لم يقل : همّوا بما لم يفعلوا ، لكن بما لم ينالوا . فصدر منهم قول وفعل . قال تعالى : [6] ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنّما كنّا نخوض ونلعب** ﴾ فاعترفوا واعتذروا ولهذا قيل[7] ﴿ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا ، بل ظنوا أنّ ذلك ليس بكفر . فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه . فدل على أنّه كان عندهم إيمان ضعيف ، ففعلوا هذا المحرّم الذى عرفوا أنّه محرّم ، ولكنهم لم يظنوه كفرا . وكان كفراً كفروا به ، فإنهم لم

---

(١) الإيمان ص ٢٠٣

(٢) سورة براءة ٧٤

(٣) سورة براءة ٦٥ ، ٦٦

(٤) الإيمان ص ٢٦٠

(٥) يشير إلى الآية الكريمة الرّابعة والسبعين من سورة التوبة .

(٦) سورة التوبة الآية ٦٥

(٧) سورة التوبة الآية ٦٦

يعتقدوا جوازه »

ونتحوّل إلى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ . سنة الله فى موضع مصدر مؤكّد . أى سن الله فى الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا [1] ومع أنّ الخطاب فى القول : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » موجه أساسا للمصطفى ﷺ ، فإنّه وراء ذلك يصحّ أن يكون موجها لكل إنسان . إنّ هذه هى سنة الله تعالى فى المنافقين الذين يصرون على نفاقهم وإيذاءهم لله تعالى ولرسوله الكريم وللمؤمنين بأن يسلط عليهم أنبياءه جلّ وعلا وجنده فيقضوا عليهم قضاءً مبرما ، إذا استمروا على ضلالهم . ولن تجد لسنة الله تعالى تبديلا ولا تغييرا ولا تحويلا . وإنّ هذا المصير المرعب من الإغراء والجلاء والأسر والقتل ، هو الذى ينتظر الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة المنورة ، إن لم يتوبوا ويصلحوا ويعتصموا بالله ويخلصوا دينهم لله . وقد جاء فى هذا الشأن فى سورة النساء قوله تعالى [2] : ﴿ **إنّ المنافقين فى الدّرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما** ﴾ . قال تعالى : ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ .

وقبل أن نتحول إلى القسم التّالى نودّ أن نتدبر مليا المصير الذى يتهدّد به ربّ العزّة المنافقين إن لم يتحوّلوا إلى الصراط المستقيم . ونحن نودّ أن ننظر إلى العناصر التى تتألف منها الجبهة المناوئة للمسلمين داخل المدينة المنوّرة وخارجها فى ضوء حديث السّورة الكريمة من هذه العناصر . إنّها ثلاثة كما عرفنا ، وهى على النّحو التّالى . الكافرون وهؤلاء خارج المدينة المنوّرة ، وبخاصة كفار مكة ومن لف لفهم ، وقد عرفنا قول المصطفى ﷺ عن قريش وقد هزم الله الأحزاب وحده . بأن قريشا لن تغزو المسلمين بعد الأحزاب ولكن المسلمين هم الذين يغزونهم . وهذا العنصر قد انهزم شر هزيمة .

---

(١) الكشاف ٢/٥٥٠ وانظر البحر المحيط ٧/٢٥٢ وتفسير القرطبى ص ٥٣٢٩

(٢) سورة النساء ١٤٥ - ١٤٧

اليهود وقد عرفنا مصير آخر معقل من معاقل اليهود في المدينة المنّورة وهو معقل بنى قريظة . وقدّدك هذا المعقل من أساسه ، وكانت هزيمته شر هزيمة كسابقه .

المنافقون الذين يتمركزون فى المدينة المنوّرة وحولها . ومن الطبيعى أن يكون المنافقون الذين يسكنون المدينة المنوّرة ذاتها ، أشد خطراً من سواهم ، وقد تجلى هذا الخطر على حقيقته فى غزوة الأحزاب . وها نحن أولاء أمام المصير الرّهيب الذى ينتظر المنافقين إن لم يتحولوا مسلمين مؤمنين صادقين فى إسلامهم وإيمانهم . والمعروف أن صوت النفاق قد خفت بعد غزوة الأحزاب وبنى قريظة ونزول هذه الآيات الكريمات من سورة الأحزاب التى تهدّد المنافقين بذات المصير الذى كان من نصيب اليهود إخوانهم على جهة الخصوص .

أما وقد شلت قوى الكفر وخضدت شوكة اليهود بالكلية ، وخفت صوت النفاق حتى تمّ القضاء عليه بنزول سورة براءة ، بحيث إنّه لم يكد يبقى للنفاق وجود مطلقا حينما توفى المصطفى ﷺ . فإنّ كل ذلك معناه أن كلمة الله تعالى قد أصبحت فعلا هى العليا ودولة الإسلام فى الجزيرة العربية كلها هى الأقوى ، ومجتمع المدينة المنوّرة المسلم لله رب العالمين المؤمن هو الموجود فعلا وواقعا .

إنّ ربّ العزة قد ردّ الذين كفروا بغيظهم ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فقتل جند الله تعالى فريقا وأسروا فريقا ، ولعن الله تعالى المنافقين المستمسكين بصفة النفاق فى كلّ مكان وجدوا فيه وسلّط عليهم جنده . وقد ثبت لهؤلاء المنافقين أن المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ، قادرون بعون الله تعالى على أن يفعلوا ما يأمرهم الله تعالى به . وكلّ ذلك معناه أنّ المدينة المنوّرة من الدّاخل قد أصبحت نقية أو فى حكم النقية من كل شائبة ، والأمر بحاجة إلى مطاردة فلول القوة الثالثة المتربصة بالمسلمين الدوائر وهى قوة الكفر وعنصر الكفر هذا هو الذى تعنى به الآيات الكريمة التالية التى صرحت بأن الله تعالى قد لعنهم كما لعن المنافقين من قبل ، وسوف يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة . وتختم السورة الكريمة بعد ذلك بتوجيه الحديث إلى ثمرة منهج التربية القرآنية اليانعة ، أعنى المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى . إنّ الآيات الكريمات ترشد هؤلاء المؤمنين المتقين إلى الطريق الأمثل ، وتهدّد فى المقابل كلاً من الفريقين الباقيين على قيد الحياة بعد ، واللذين يلفظان فى الجزيرة العربية أنفاسهما الأخيرة . إنّ العذاب من

نصيب المنافقين والمنافقات ، وإنّ المغفرة والرّحمة من نصيب المؤمنين والمؤمنات ، فإلى آيات القسم التالى التى تتحدّث عن الكافرين والملعونين فى الدّنيا والآخرة .

(١٥)
الكافرون ملعونون فى الدّنيا والآخرة

الآيات ٦٣ ــ ٦٨

هذه الآيات الكريمات الست ، تتحدث عن الكافرين المطرودين من رحمة الله تعالى . قال عزّ من قائل : ﴿ **يسألك الناس عن الساعة قل إنّما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا . إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا . خالدين فيها أبداً لا يجدون وليا ولا نصيرا . يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً** ﴾.

سمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : ﴿ **يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا** ﴾ وأوّل ما نودّ الوقوف عنده هو لفظة النّاس الّتى تستعملها الآية الكريمة ، وليس المؤمنين أو غير المؤمنين . والمعروف أنّ لفظة النّاس هذه إنما تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على كلّ النّاس وفيهم غير المؤمنين بل وفى مقدّمتهم غير المؤمنين ، أمّا المؤمنون فيخاطبون فى القرآن الكريم عادة بأهم صفاتهم وهى الإيمان . وبتدبرنا للآية الكريمة يتبين أنّها تنص على أنّ ثمّة فريقا من النّاس يسأل المصطفى ﷺ : متى تقوم القيامة ومتى تأتى الساعة ومتى يكون اليوم الآخر ؟ وبما أنّ ربّ العزّة لم يطلع المصطفى ﷺ على هذا النوع من الغيب مطلقا ، فإنّه عليه الصّلاة والسّلام يلقّن هنا بأن يجيب هؤلاء السائلين بأنّ وقت قيام الساعة من الأمور التى استأثر الله تعالى بعلمها . فلا يعلم المصطفى ﷺ ولا سواه ذلك الوقت ، لأنه ﷺ إنما يقول بوحى من الله تعالى ، ولم يوح ربُّ العزّة لأحد من خلقه وفيهم خير خلقه بالوقت الذى تقوم فيه القيامة ، ومع ذلك فإنّ الآية الكريمة تشير إلى أنّ الساعة من الجائز أن تكون قريبا . وبعد هذه النظرة

السريعة إلى الآية الكريمة ، نحن بحاجة إلى إلقاء نظرة أخرى . ونبدؤها بهذا السّؤال : أى فئة من النّاس هى التى تسأل وتلح فى السّؤال عن موعد قيام الساعة ؟ قد يتبادر إلى الذهن أنّ الذين يسألون ويلحفون فى السؤال هم المؤمنون المتقون ، مظهرا من مظاهر الاهتمام بها والاستعداد لها . ولكن الجواب بعكس ذلك . إنّ الذين يسألون ويلحفون فى السّؤال عن موعد قيام السّاعة ليس المؤمنين المتقين المشفقين منها المنصرفين إلى العمل الجادّ من أجلها باعتبارها حقيقة آتية لا ريب فيها ، وكلّ آت قريب ، فبدلا من تضييع الأوقات والمجهودات فى السّؤالات التى لا تقدّم ولا تؤخّر هم ينصرفون إلى العمل من أجلها والاستعداد لها . إنّما الذين يسألون ويلحفون فى السّؤال عن موعد يوم القيامة هم الكافرون فى المقام الأوّل واليهود . وقد جاء فى سورة الشورى قوله تعالى[1] : **الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان . ومايدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألاّ إنّ الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد** أمّا المشركون فيسألون عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء . واليهود على سبيل الامتحان إذ كانت معمى وقتها فى التوراة . فنزلت الآية بأن يردّ العلم إلى الله إذ لم يطلع عليها ملكا ولا نبيّا[2] .

والسّاعة هو الوقت الذى تقوم فيه القيامة[3] : « يسألك الناس عن الساعة » والآية الكريمة تقصر على الله تعالى وحده لا شريك له العلم بوقت قيام الساعة **قل** إنّما علمها عند الله ومعروف أنّ علم السّاعة أحد مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلاّ هو جلّ وعلا . وقد قال تعالى[4] : **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو** وهذه هى مفاتح الغيب الخمسة . قال تعالى[5] : **إنّ الله عنده علم السّاعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت، إنّ الله عليم خبير**.

---

(١) سورة الشورى ١٧ ، ١٨

(٢) البحر المحيط ٢٥٢/٧ والكشاف ٥٥٠/٢

(٣) القاموس « سوع »

(٤) سورة الأنعام ٥٩

(٥) سورة لقمان ٣٤

وواضح أنّ هذا الجواب فى سورة الأحزاب المدنية ، بكون العلم بوقت يوم القيامة ، ممّا استأثر الله تعالى بعلمه ، هو ذات الجواب فى المكى من القرآن الذى نزل قبل الهجرة ، ممّا هو دليل على أنّ الجواب فى كل الأوقات والأحوال واحد . جاء فى سورة الأعراف المكية قوله تعالى[1] : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيّان مرساها . قل إنما علمها عند ربى ، لايجليها لوقتها إلاّ هو . ثقلت فى السماوات والأرض . لا تأتيكم إلاّ بغتة . يسألونك كأنك حفى عنها . قل إنّما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ . وواضح كذلك أنّ هذا الجواب مظهر من مظاهر تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ . فالمشركون واليهود إذا ظنوا أنهم كثيرون بشياطين الإنس والجنّ ، فإن على هؤلاء المشركين ومن لفّ لفّهم أن يعلموا جيداً أنّ ربّ العزّة مع المصطفى ﷺ ، يتحفه دائماً وأبداً بنصره وتأييده . بالمؤمنين بل وبملائكة ربّ العالمين . وإنّ الجواب الذى بصدده أحد مظاهر عناية الله تعالى بعبده محمّد بن عبد الله ﷺ ورعايته له . لأن لسان الحال يقول : « ليس فى إخفاء الله وقتها ما يبطل نبوتى . وليس من شرط النبى أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جلّ وعزّ »[2] وإنّ القول « وما يدريك » من القول : « وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا » يتوجّه فيه الخطاب إلى المصطفى ﷺ » ما استفهام فى موضع رفع بالابتداء . أى وأى شىء يدريك بها . ومعناه النفى . أى ما يدريك بها أحد »[3] .

والملاحظ أنّ ، عن يوم القيامة يجىء فى القرآن الكريم أحياناً فى صيغة وما أدراك » ويجىء أحياناً أخرى فى صيغة « وما يدريك » كما هو الحال بشأن الصيغة التى نحن بصددها . وقد فرق العلماء بين القولين . « عن سفيان (بن عيينة) قال : ما فى القرآن : وما يدريك ، فلم يخبره . وما كان : وما أدراك فقد أخبره »[4] .

ومع أنّ لعل نحويا ، من الحروف المشبهة بالفعل ، وتفيد الترجى فى المحبوب ، والإشفاق فى المكروه ، وتختصّ بالممكن الذى لاوثوق بحصوله ، فالملاحظ أن وقت

---

(١) سورة الأعراف ١٨٧

(٢) تفسير القرطبى ٥٣٣٠

(٣) البحر المحيط ٢٥٢/٧

(٤) تفسير القرطبى ٣١/٢٩ وانظر تفسير القرطبى ص ٦٧٣٦

قيام الساعة الآتية لا ريب فيها ، يمكن أن ينظر إليه من زاويتى البعد والقرب معاً . أمّا زاوية البعد فلأنه يلوح بأنه ، بإذن الله تعالى آت بعد حين.وأمّا زاوية القرب ، فلأنّ من مات فكأنه قد قامت قيامته ، لأن الوفاة التى هى عبارة عن كأس سيشربها كل مخلوق لا محالة ، آتية حتماً قريبا أو بعيدا . إنّ الوفاة إن كانت قريبة فما أصدق القول فى حق من هذه حاله : من مات كأنّه قد قامت قيامته . روى عنه ﷺ أنّه قد قال كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه[1] : « والله لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون . ولتحاسبن بما تعملون . ولتجزون بالإحسان إحسانا . وبالسوء سوءا . وإنّها لجنة أبدا . أو لنار أبدا » فالمصطفى ﷺ قد نزّل الموت منزلة النوم . والبعث منزلة الاستيقاظ من النوم . وقد قال عزّ من قائل فى سورة الزّمر[2] : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمًّى.إنّ فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ وإنّ النصوص لكثيرة فى القرآن الكريم ، تلك التى يفهم منها أن ثمّة وجه شبه بين حال كلّ من الميت والنائم فى عدم إحساس كل بمرور الزمن . ومن ذلك قصة أصحاب الكهف والذى مرّ على قرية خاوية على عروشها . جاء فى حق هذا الأخير قوله تعالى من سورة البقرة[3] :﴿ **أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنّى يُحْيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثمّ بعثه قال كم لبثت.قال لبثت يوما أو بعض يوم.قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه.وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس.وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما . فلمّا تبين له قال أعلم أنّ الله على كل شىء قدير** ﴾ إنّ من نظر إلى يوم القيامة من اللحظة التى هو يحيا فيها باعتبار الأحياء الذين يتوارثون الحياة إلى أن ينفخ فى الصور إسرافيل النفخة الأولى التى يصعق بها من فى السماوات ومن فى الأرض إلاّ من شاء الله من الملائكة والحور والولدان ، إلى أن ينفخ فى الصورة النفخة الثانية التى تحيى بإرادة الله تعالى الخلائق ، من الجائز أن يستحوذ عليه طول هذه الفترة زمنا . أمّا الشخص الحكيم الحازم فإنّه يجعل حياته هى المحور . فبما أنّه

---

(١) نور اليقين ص ٤٤

(٢) الآية ٤٢

(٣) سورة البقرة ٢٥٩

من الجائز أن يتوفى حالا ، لذا فكأن قيامة كل إنسان تقوم كل لحظة . فأين المعتبر الذى يغنم من يومه لغده ، ومن شبابه لهرمه ، ومن صحته لسقمه ، ومن حياته لمماته ، فإنّ من مات كأنّه قد قامت قيامته فعلا . فقد قال المصطفى ﷺ : والله لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون . ولتحاسبن بما تعملون . ولتجزوُنّ بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا . وإنّها لجنة أبدا أو لنار أبدا .

إنّ هذه الجزئية الكريمة : ﴿ **وما يدريك لعل السّاعة تكون قريبا** ﴾ يفهم منها الحكيم أنّ الساعة قريبة فعلا فى حقّه هو على جهة الخصوص . وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وكيف لا يعرف الشخص الحكيم الحازم هذا ويستفيد من حياته ، ويملؤها بكل ما يسرّ به إن شاء الله تعالى يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ، وهو على علم أكيد بأن حياته عبارة عن دقات للقلب معدودة ، ومرّات للنفس محدودة . أيعرف الإنسان أنّه كل يوم تطلع فيه الشمس ينقص من رصيده التنفسى زهاء أربعة وعشرين ألف نفس[1] وقِسْ على هذا ما ينقص من رصيد دقات قلبه ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾[2] وحينما يكون رصيد كل مخلوق من هذه الحياة إلى نقصان ، وحينما تكون الحياة ذاتها متجهة إلى نهايتها أليس كل آت قريبا ؟ أليس هذا اليوم الذى نحياه أقرب إلى يوم القيامة من أمس الدّابر ؟ ألسنا نتجه جميعاً إلى الله تعالى وإلى يوم القيامة . اليوم المجموع له النّاس المشهود ؟ ألم يقل الرّسول ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار إلى السبابة والوسطى ، خرجه أهل الصحيح[3] ألم يقل الله تعالى فى محكم كتابه[4] ﴿ **اقتربت السّاعة وانشق القمر** ﴾ ؟ ألم يقل الله تعالى فى محكم كتابه[5] : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون** ﴾ ؟ ألم يقل الله تعالى فى محكم كتابه[6] : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ ؟ إذن هذا الاستفهام فى الآية الكريمة : « وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا » هو الحقّ كل

---

(١) انظر هنا مثلا ص ٤٠٨ من كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين

(٢) سورة الأعراف ٣٤

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٣٣٠

(٤) سورة القمر ١

(٥) سورة الأنبياء ١

(٦) سورة النحل ١

الحقّ . إنّ الساعة قريبة كلّ القرب ، لأنّ كل آت قريب ، ولأنّ من مات كأنه قد قامت قيامته . فهل من مدّكر . يقول أبو حيّان[1] : « لعل السّاعة تكون قريباً . بيّن قرب الساعة وفى ذلك تسلية للممتحن وتهديد للمستعجل . وانتصب قريبا على الظرف أى فى زمان قريب . إذ استعماله ظرفا كثير . ويستعمل أيضاً غير ظرف . تقول : إنّ قريبا منك زيد . فجاز أن يكون التقدير : شيئاً قريبا . أو تكون الساعة بمعنى الوقت . فذكر قريبا على المعنى ، أو يكون التقدير : لعل قيام الساعة . فلوحظ الساعة فى تكون فأنث . ولوحظ المضاف المحذوف وهو قيام فى قريبا فذكر » ويقول البخارى[2] : « لعل الساعة تكون قريبا . إذا وصفت صفة المؤنث قلت : قريبة . وإذا جعلته ظرفا وبدلا ولم ترد الصفة نَزَعْت الهاء من المؤنث . كذلك لفظها فى الواحد والاثنين والجميع للذكر والأنثى » قال تعالى : ﴿ **يسألك النّاس عن السّاعة قل إنّما علمها عند الله وما يدريك لعلّ السّاعة تكون قريبا** ﴾ .

لقد تبين أنّ أكثر الناس سؤالا عن السّاعة هم الكافرون على جهة العموم ، كفّار مكة ومن لف لفهم على جهة الخصوص ، وهؤلاء إنّما يسألون عن السّاعة استهزاءً ، لأنهم لا يؤمنون بها أساساً . وإنّ الآية الكريمة لتنصّ على أنّ ربّ العزة قد لعن هؤلاء الكافرين وأعدّ لهم سعيرا . قال تعالى : ﴿ **إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا** ﴾ . ونحن نتبين أنّ ثمّة اشتراكا بين المنافقين والكافرين فى اللّعنة فى الدّنيا ، مادام كل من الفريقين على نفاقه وكفره ولم ينته عنه . وفى الآخرة كذلك ، فى حال استمرار كل من الفريقين فى طريقه الخاطىء . وقد نصّت الآية الكريمة التى تتحدّث عن هؤلاء الكافرين على أنّ ربّ العزة قد أعدلهم يوم القيامة سعيرا . ولا يكون ذلك نصيبا إلاّ لمن لازمته اللعنة فى الآخرة وزايلته رحمة الله تعالى . وفى ضوء هذا الفهم يمكن أن يقال إنّ الآية الكريمة تتحدّث عن لعنة الله تعالى التى تحل على الكافرين فى الدّنيا ، بأن أبعدهم عن كل خير وأقصاهم عنه[3] « إنّ الله لعن الكافرين » وعن النار المحرقة المسعورة الشديدة الإيقاد[4] التى يصلاها الكافرون يوم القيامة ﴿ وأعدّ لهم

---

(١) البحر المحيط ٢٥٢/٧

(٢) الصحيح ١٤٨/٦

(٣) تفسير الطبرى ٣٥/٢٢

(٤) الكشاف ٥٥٠/٢

سعيرا﴾ فاللعنة فى الحقيقة ملازمة للكافرين فى الدّنيا والآخرة ، وتترجم اللعنة يوم القيامة إلى نار محرقة يصلاها الكافرون . « وأنث السعير لأنها بمعنى النار »[1] قال تعالى : ﴿إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا﴾ .

ومن مظاهر لعنة الله تعالى لهؤلاء الكافرين أنهم فى النار التى تلك صفتها خالدون . قال تعالى : ﴿خالدين فيها أبداً لا يجدون وليا ولا نصيرا﴾ يقول : ماكثين فى السعير أبداً إلى غير نهاية . لا يجدون وَلِيّاً يتولاّهم فيستنقذهم من السعير التى أصلا هموها الله . ولا نصيرا ينصرهم فينجيهم من عقاب الله إياهم[2] وبالإضافة إلى نصّ الآية الكريمة على خلود الكافرين فى النار ، هى تعمّق ذلك الخلود وتقويه بالقول « أبدا » إنّ الكافرين عاجزون عن دفع الأذى عن أنفسهم ، وإنّ الذين كانوا يظنّون أنهم قادرون على أن يتولوا مصالحهم وينصروهم عاجزون مثلهم . وقد بينت الآية الكريمة هذه المعانى وعمقتها . قال تعالى :﴿إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا﴾ .

والآية الكريمة التالية تبين الحال السيئة التى سيكونون عليها فى ذلك اليوم الذى سألوا عنه فى الحياة الدّنيا استهزاءً . قال تعالى : ﴿يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرّسولا﴾ ويجوز أن يكون « يوم » منصوبا بفعل محذوف والتقدير « اذكر »[3] وتقليب الوجوه تحرّكها فى الجهات[4] وتصريفها فيها كما ترى البضعة[5] تدور فى القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة[6] وبما أنّ الوجه أشرف أعضاء الجسم . فإنّ الهوان الذى هو من نصيبه فى النار يوم القيامة دليل على الهوان الذى هو من نصيب بقية الأعضاء التى تقلّ عن الوجه شرفا . وإنّ الكافرين الذين هم فى تلك الحال التى ليس وراءها فى السوء وراء ، يظلّون قادرين على تذكر السبب الذى من أجله هم يقاسون ما يقاسون . إنّه

---

(١) تفسير القرطبى ٥٣٣٠

(٢) تفسير الطبرى ٣٥/٢٢

(٣) الكشاف ٥٥١/٢ والبحر المحيط ٢٥٢/٧

(٤) البحر المحيط ٣٥٢/٧

(٥) البضعة بكسر الباء وفتحها القطعة من اللحم

(٦) الكشاف ٥٥٠/٢

الكفر . إنّه عصيان الله تعالى وعصيان رسوله الكريم . وهنالك يتمنون من أعماقهم ، وليس بنافعهم التمنّى ، أن لو أطاعوا الله تعالى وأطاعوا الرّسول محمد بن عبد الله ﷺ . وانظر إلى جملة « يقولون » التى تجىء فى صيغة الزّمن المضارع خلافا لصيغة الزمن الماضى التى ستبدأ الآية الكريمة التالية بها . وصيغة الزّمن المضارع هذه قادرة على الإيحاء بأن هذا القول من الكافرين يجىء على ألسنتهم ساعة تقلّب أوجههم فى النار والعياذ بالله . يقول الطبرى[1] : « يقولون وتلك حالهم فى النّار ياليتنا أطعنا الله فى الدّنيا وأطعنا رسوله فيما جاءنا به عنه من أمره ونهيه ، فكنّا مع أهل الجنة فى الجنة » وانظر إلى تكرير جملة أطعنا على ألسنة هؤلاء الكافرين . ممّا هو دليل على عمق الآلام التى يحس بها الكافرون ، فيترجمون تلك الآلام كلاما وآهات وأمانى تغطى بالتساوى جانبى المسألة ، ولا يكتفون مثلاً بالقول : ياليتنا أطعنا الله والرّسولا . لا إنّ تكرار الفعل دليل على رغبتهم فى التخلص من كل ما يمكن التخلص منه من آلام مبعثها عدم طاعة الله تعالى وعدم طاعة رسوله الكريم ﷺ . ويمكن أن نتبين نحن من تكرار جملة أطعنا فى الآية الكريمة نوعا من العلاقة بهذه الآية الكريمة من سورة النساء فى الموضوع ذاته قال تعالى[2] : **﴿ يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم.فإن تنازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾** . إننا بصدد درس من تكرار فعل الطّاعة فى كل من الموضعين ومفاد هذا الدرس أن طاعة الرّسول ﷺ هى طاعة الله تعالى ، لأن المصطفى ﷺ لا ينطق عن الهوى ، كما نص على ذلك القرآن الكريم كذلك . وألف « الرسولا » تقع فى الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها . وكذا السبيلا[3] ويقول الزّمخشرى بشأن السبيلا فى الآية الكريمة التالية ولكن الموضوع واحد[4] : « وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآى كقوافى الشعر . وفائدتها الوقف والدلالة على أنّ الكلام قد انقطع وأنّ ما بعده مستأنف » .

---

(١) تفسير الطبرى ٣٥/٢٢

(٢) سورة النساء ٥٩

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٣٣١

(٤) الكشاف ٥٥١/٢

وهذا المعنى الذى تشير إليه الآية الكريمة يؤكده القرآن الكريم فى غير ما موضع . جاء فى سورة الفرقان[1] قوله تعالى : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرّسول سبيلا . يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذّكر بعد إذ جاءنى . وكان الشيطان للإنسان خذولا** ﴾ وجاء فى سورة الحجر[2] قوله تعالى : ﴿ **ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ قال تعالى : ﴿ **يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرّسولا** ﴾ .

وإذا كان الكافرون وهم فى تلك الحال العصبية يذكرون جيدا السبب فيما حلّ بهم من ويلات ، وهو أنهم لم يطيعوا الله تعالى ولم يطيعوا رسوله الكريم ، بل عصوهما ، فإنّهم يذكرون كذلك جيدا الذين أطاعوهم . إنهم الرّؤساء والكبراء . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التالية . قال تعالى : « **وقالوا ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** » وانظر إلى صيغة « قالوا » فى الزمن الماضى ممّا هو دليل على تقلب الأحوال فى الجحيم ، إضافة إلى تقلب الوجوه ، لقد تبينوا أن التمنى لم ينفعهم . « يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرّسولا » وهاهم أولاء يتجهون إلى ربهم جلّ وعلا ، مبينين السبب فى إغوائهم . وانظر إلى لفظ الرب الدّال على تربيته جلّ وعلا لخلقه بنعمه وآلائه ، مظهرا من مظاهر رحمته جل وعلا بعباده ، والذى يصدر من أعماق قلوب الكافرين ، إشعارا بإحساسهم العميق بحاجتهم الملحة لنعم الله تعالى وآلائه ورحمته ، فى ذلك الظرف العصيب . وأنّى لهم الذكرى وليس الوقت وقت استعتاب أو عمل ، إنما هو وقت جزاء على كل ما صدر عن الإنسان من أعمال فى الدار الأولى دار العمل والفناء .

إنّ هؤلاء الكافرين يعترفون بأنهم أطاعوا سادتهم وكبراءهم . « قال طاوس : سادتنا يعنى الأشراف . وكبراءنا يعنى العلماء ورواه ابن أبى حاتم . أى اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شىء ، فإذا هم ليسوا على شىء »[3] وفى ضوء هذا التفسير للسادة والكبراء نحن

---

(١) الآيات ٢٧ - ٢٩

(٢) الآية ٢

(٣) تفسير ابن كثير ٥١٩/٣

نودّ أن نقف عند تكرار جملة « أطعنا » فى الآية الكريمة السابقة : « يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرّسولا » ممّا هو دليل على معرفة هؤلاء الكافرين حقيقة الدور الذى يقوم به رسل الله تعالى ، وأنّ طاعة الرّسول هى طاعة الله تعالى ، بينما جاءت الجملة مرّة واحدة بشأن السادة والكبراء فى القول على لسان هؤلاء الكافرين أطعنا سادتنا وكبراءنا.إن السياق يقدّم على لسان القوم فى الذكر الأمراء وأرباب المناصب الدنيوية على أرباب المناصب الدّينية . والسياق يكتفى بذكر جملة أطعنا فى حق أرباب المناصب الدّنيوية ، ممّا هو دليل أكيد على إقبال هؤلاء الكافرين على الحياة الدّنيا وحرصهم على كل متعها الرّخيصة الزائلة . ومعروف أن الدّنيا إنما توجد عادة لدى أصحاب المناصب الدّنيوية . فإذا أضفنا إلى ذلك أن أرباب المناصب الدّينية الذين اتبّعهم الكافرون كانوا ضالين وأضلّوا قومهم عن سواء السبيل ، وأنّ أهم سبب جعل رجال الدين هؤلاء يعطلون عقولهم ويغالبون ضمائرهم فيغلبونها هو حرصهم على متع الحياة الدّنيا التى تجىء غالبا من جهة أصحاب السّلطة ، أدركنا أنّ السبب الحقيقى الذى صرف التابعين والمتبوعين عن اتباع طريق الهدى والفلاح والصراط المستقيم ، هو حرصهم على متع الحياة الدّنيا التى يعتبرونها نهاية المطاف وغاية المنى . وإنّه إذا كان رجال الدّين قد باعوا دينهم بدنياهم إرضاء لنزواتهم ونزوات السلطة الحاكمة الحريصة على ألا تخسر شيئاً ممّا وصلت إليه يداها ، بل أن يضاف إلى ذلك ما تتمنى أن يصل إليها وتحكم به ، فمن أين يتوقع للخير أن يلج ؟ إنّ كلّ المنافذ قد أوصدت ، وكلّ السبل قد أغلقت ، فاستحقّ الجميع اللعنة فى الدّنيا والآخرة . وها هى ذى اللعنة تترجم يوم القيامة ناراً حامية يصلاها الكافرون وتقلّب فيها وجوههم والعياذ بالله .

وقرأ الجمهور سادتنا[1] وقرىء كذلك ساداتنا[2] والسادة جمع السيد . وهو فعلة ، مثل كتبه وفجره . وساداتنا جمع الجمع[3] فأضلونا السبيلا ، أى عن السبيل ، وهو التوحيد . فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب[4] ويقال : ضل

---

(١) البحر المحيط ٢٥٢/٧ والكشاف ٥٥١/٢

(٢) الكشاف ٥٥١/٢

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٣٣١

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٣٣١

السبيل وضل عن السبيل . فإذا دخلت همزة النقل تعدى لاثنين[1] والإضلال لا يتعدى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجرّ كقوله : لقد أضلنى عن الذكر[2] يقول الطبرى فى تفسير الآية الكريمة[3] : « وقال الكافرون يوم القيامة فى جهنم : ربنا إنّا أطعنا أئمتنا فى الضلالة وكبراءنا فى الشرك فأضلونا السبيل . يقول فأزالونا عن محجة الحق وطريق الهدى والإيمان بك والإقرار بوحدانيتك وإخلاص طاعتك فى الدّنيا » قال تعالى : ﴿ **وقالوا ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السَّبيلا** ﴾ .

ولما لم يجد تمنّيهم الإيمان بطاعة الله ورسوله ، ولا قام لهم عذر فى تشكّيهم ممن أضلهم دعوا على ساداتهم[4] قال تعالى : ﴿ **ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا** ﴾ ويلاحظ أنّه يتكرر على لسان الكافرين القول : « ربنا » والضعفان من العذاب المثلان . فالضعف هو المثل ، هذا هو الرّأى الرّاجح ، وليس الضعف المثلين[5] أمّا العذاب الأوّل فبسبب كفر هؤلاء السادة والكبراء وضلالهم . وأمّا العذاب الثانى فبسبب إضلال الآخرين وإغوائهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى[6] وقد جاء فى صدر سورة محمد عليه الصّلاة والسلام مثلا قوله تعالى[7] : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم** ﴾ وفى سورة النحل[8] قوله تعالى : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون** ﴾ .

قرأ بالباء « كبيرا » ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم[9] وحذيفة بن اليمان وابن عامر والأعرج[10] والباقون بالثاء « كثيراً » واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس[11]

---

(١) البحر المحيط ٢٥٢/٧
(٢) تفسير القرطبى ص ٥٣٣١
(٣) تفسير الطبرى ٣٥/٢٢
(٤) البحر المحيط ٢٥٢/٧
(٥) انظر هنا طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٤٨١ ، ٤٨٢
(٦) انظر تفسير ابن كثير ٥١٩/٣ وتفسير الطبرى ٣٥/٢٢ والبحر المحيط ٢٥٢/٧ والكشاف ٥٥١/٢ وتفسير القرطبى ص ٥٣٣٢
(٧) سورة محمّد ١
(٨) الآية ٨٨
(٩) تفسير القرطبى ص ٥٣٣٢
(١٠) البحر المحيط ٢٥٢/٧
(١١) تفسير القرطبى ص ٥٣٣٢

وقراءة الباء ترجع فى المعنى إلى الثاء ، لان ما كبر كان كثيرا عظيم المقدار[1] يقول الزمخشرى[2] : « وقرىء كثيراً تكثيراً لأعداد اللعائن . وكبيرا ليدلّ على أشدّ اللعن وأعظمه » ويقول ابن كثير[3] : « والعنهم لعنا كبيرا ، قرأ بعض القراء بالباء الموحدة . وقرأ آخرون بالثّاء المثلثة . وهما قريبا المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو أنّ أبا بكر قال : يا رسول الله علمنى دعاءً أدعو به فى صلاتى قال : قل : اللهم إنّى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلاّ أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى فإنّك أنت الغفور الرحيم . أخرجاه فى الصحيحين . يروى كثيرا وكبيرا . وكلاهما بمعنى صحيح » .

وهكذا يتبين أنّ الكافرين يعترفون ويستغيثون ويتمنون ولا ينفعهم شيء من ذلك[4] وها هم أولاء يدعون الله تعالى أن يؤتى سادتهم وكبراءهم ضعفين من العذاب وأن يلعنهم لعنا كبيرا .

وإذا كانت الآية الكريمة اكتفت بتسجيل مواقف الأتباع المختلفة المتنوعة ، فإنّ ثمّة مواضع أخرى فى القرآن الكريم ، تمّ فيها تصوير النزاع والمحاجّة بين الفريقين . ومن ذلك قوله تعالى فى سورة غافر[5] : ﴿ **وإذ يتحاجون فى النّار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنّا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النّار . قال الّذين استكبروا إنّا كل فيها إنّ الله قد حكم بين العباد . وقال الّذين فى النّار لخزنة جهنم ادعوا ربّكم يخفف عنّا يوما من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلاّ فى ضلال** ﴾ وجاء فى سورة البقرة[6] قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتّخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا أشدُّ حبا لله . ولو يرى الّذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوة لله جميعا وأنّ الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أنّ لنا كرة فنتبرأ**

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٣٣٢

(٢) الكشاف ٥٥١/٢

(٣) تفسير ابن كثير ٥١٩/٣

(٤) الكشاف ٥٥١/٢

(٥) الآيات ٤٧ - ٥٠

(٦) الآيات ١٦٥ - ١٦٧

منهم كما تبرءوا منّا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النّار﴾ وجاء فى سورة الأعراف[1] قوله تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته . أولئك لهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار. كلما دخلت أمّة لعنت أختها . حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذابا ضعفا من النّار. قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ وجاء فى سورة سبأ[2] قوله تعالى :﴿ وقال الّذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه . ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الّذين استكبروا للّذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون﴾ . وجاء فى سورة الصافات[3] قوله تعالى :﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين . قالوا بل لم تكونوا مؤمنين . وماكان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين. فحقّ علينا قول ربنا إنّا لذائقون . فأغويناكم إنّا كنا غاوين . فإنّهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنّا كذلك نفعل بالمجرمين . إنّهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلاّ الله يستكبرون . ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق وصدق المرسلين. إنّكم لذائقو العذاب الأليم وما تجزون إلاّ ما كنتم تعملون﴾ . قال تعالى :﴿ يسألك النّاس عن السّاعة قل إنّما علمها عند الله وما يدريك لعلّ السّاعة تكون قريبا . إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً . خالدين فيها أبدا لا يجدون وليّا

---

(١) الآيات ٣٧ - ٣٩

(٢) الآيات ٣١ - ٣٣

(٣) الآيات ٢٧ - ٣٩

ولا نصيرا . يوم تقلب وجوهُهُمْ فى النّار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرّسولا . وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴿ .

(١٦)
تقوى الله ثمرة المنهج القرآنى تربويًا

الآيات ٦٩ ــ ٧٣

هذا القسم الأخير فى سورة الأحزاب الكريمة الذى يتكون من خمس آيات كريمات ، يتحدّث عن المؤمنين المتّقين الثمرة اليانعة لمنهج التربية القرآنية . إنّ الآية الكريمة الأولى فيه تنهى المؤمنين المتقين عن أن يكونوا كبنى إسرائيل الذين آذوا موسى عليه السلام بألسنتهم فبرأ الله تعالى موسى عليه السّلام ممّا قالوا . وتضيف الآية الكريمة جديدا فى حقه عليه الصّلاة والسّلام ومنزلته عند بارئه ، حينما تقرّر أنّه كان ذاجاه عند الله تعالى ، ومنزلة خاصة به .ويجىء إثر النهى عن الإيذاء فى الآية الأولى الأمر بتقوى الله تعالى فى الآية الكريمة الثانية وهى منتهى ما يطلب من المسلم لله ربّ العالمين ، ممّا هو دليل على أن المسلم لله ربّ العالمين قد رشّحه ربُّه جل وعلا لمعالى الأمور وليس لسفسافها . وبسبب خطورة اللّسان واستهانة الإنسان عادة بما يتلفظ به دون فطنة إلى خطورته وأذاه ، يقرن الأمر بتقوى الله تعالى بأن يقول المسلم لله ربّ العالمين قولا سديدا . وهذا يذكرنا بقوله تعالى فى سورة الإسراء[1] : **﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إنّ الشيطان ينزغ بينهم إنّ الشيطان كان للإنسان عدوًا مبينا ﴾** أمّا مكافأة التقوى وسداد الأقوال ، والثواب عليها من الله تعالى ، فقد نصت عليه الآية الكريمة الثالثة التى بينت أنّ الله تعالى سيسدد أفعال هؤلاء العباد مقابل سداد أقوالهم وتقواهم ، بأن تكون أعمالهم التى يقومون بها صالحة مقبولة ، ولا يتحقق ذلك إلاّ بصالح العمل وصالح النية.أمّا مقياس صالح الأعمال فأن تكون صادرة عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم . وذلك هو الفوز العظيم .

---

(١) الآية ٥٣

وفى الوقت الذى تبين فيه الآيات الكريمات الدّور العظيم الذى رشحت العناية الإلهية المسلم لله ربّ العالمين للقيام به ، تبين المسئولية العظمى التى نيطت بجنس الإنسان ، المسلم لله ربّ العالمين على جهة الخصوص ، بل التى رضى هذا الإنسان أن يحملها فوق ظهره بإرادته ، وأن تطوق بها رقبته باختياره ، ممثلا فى أبينا آدم عليه السّلام الذى قبل تلك الأمانة ، وقد رفضت قبولها وأشفقت منها السماوات رغم ضخامتها ، والأرض رغم كبرها ، والجبال رغم صلابتها . إنّ الإنسان رغم صغر حجمه ، بحيث إنّه حتى فى حال تطاوله ، لن يبلغ أصغر الجبال طولا ، يقبل تحمّل الأمانة التى عرضت عليه ، والمسئولية التى نيطت به ، دليلا على بعد همته ، وثقته المفرطة فى كفاءته . والآية الكريمة الرّابعة فى القسم التى بيّنت كل ذلك ، نصّت على كون هذا الإنسان ظلوما جهولا . إنّه ظالم لنفسه لأنّه حتى فى حال قدرته على أداء الأمانة ، هو يسيء استعمال طاقاته . فجنس الإنسان لذلك جهول أحمق ، لأنه ، إلاّ من رحم ربّك ، لا يحسن دائماً ما صنع . وما صنع ربمّا ضيع . فثمة تناقض بين ما به وعد ، وبين ما أتى وترك .

وبتدبرنا لجنس الإنسان وموقفه من قبوله الأمانة بمعنى الفرائض ، ينقسم ثلاثة أقسام رئيسية :

(أ) المؤمنون المتقون الموفون بعهد الله تعالى .

(ب) الكافرون الناكثون للعهود والمواثيق علنا وصراحة .

(جـ) المنافقون الذين يظهرون الإيمان والتقوى والوفاء بالعهود والذين يبطنون الكفر ونقض العود والمواثيق . ومن الواضح أنّ كافرى أهل الكتاب لاحقون بالفريقين الأخيرين .

وواضح أنّ كلاً من الكافرين والمنافقين يستحقون العذاب الأليم المقيم ، بل إنّ المنافقين يستحقون أشدّ العذاب ، وأنّ المؤمنين المتقين يستحقّون جنّات الخلد . لقد نصّت الآية الكريمة على كلّ ذلك . فبالنسبة لعذاب المنافقين والكافرين قد نصّت على ذلك وبالنسبة لعذاب المنافقين الأشدّ ، فى تقديم الآية الكريمة للمنافقين فى الذكر ، دليل على كل ذلك . وبالنسبة للمؤمنين تذكر الآية الكريمة بصريح اللفظ المؤمنات اللاتى عنيت بهن هذه السورة الكريمة عناية فائقة،خاصة وأنها ذكرت بصريح

اللفظ المنافقات والمشركات ، وتنصّ على السَّبب الأخير الذى يعنى تحققه ، بإذن الله تعالى ، الخلود فى جنّات النعيم . أمّا هذا السَّبب فهو تفضل الله تعالى بقبوله توبة المؤمنين والمؤمنات ، من لمم الذنوب التى ارتكبوها لأنّهم بشر يذنبون ويستغفرون ، ويتفضّل الله تعالى بقبول توبتهم فيغفر ذنوبهم ويزيدهم من فضله بأن تشملهم رحمته التى وسعت كل شيء . قال تعالى : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيها . يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما . إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما** ﴾.

وبعد هذه النظرة الأولى السريعة إلى الآيات الكريمات ، نحن بحاجة إلى نظرة أخرى متأنية . فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيها** ﴾.

إنّ الآية الكريمة لتخاطب المسلمين لله ربّ العالمين كعادتها بأهم صفاتهم وهى صفة الإيمان : « يا أيُّها الذين آمنوا » ومعروف أنّ هذا النوع من الخطاب من خصائص المدنى من القرآن الذى يخاطب الأمة المسلمة لله ربّ العالمين التى قدر لها أن توجد لأوّل مرة فى المدينة المنوّرة ، بعد هجرة المصطفى ﷺ إليها وتأسيس الدولة الإسلامية من اليوم الأوّل لوصوله ﷺ إلى المدينة المنورة . والآية الكريمة بعد ذلك تنهى هؤلاء المؤمنين عن إيذاء المصطفى ﷺ فى أى صور الإيذاء . ولكن فى أى طرائق التعبير تنهى الآية الكريمة المؤمنين عن إيذائه ﷺ . إنّها لا تقول لهم لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كي يقال إنّ النهى يوجّه إليهم مباشرة. وانّما يجيء النهى فى هذه الصورة العجيبة من التعبير: « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى» ومعروف أنّ الذين آذوا موسى عليه الصلاة والسلام بنوا اسرائيل قومه، بعد أن مكن الله تعالى لهم فى الأرض وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها التى بارك الله تعالى فيها جزاء صبرهم على ايذاء فرعون وملئه لهم ولرسول الله تعالى إليهم موسى عليه الصّلاة والسّلام.

وهذا معناه أنّ الآية الكريمة تنهى المؤمنين أتباع المصطفى ﷺ أن يكونوا مثل بنى إسرائيل الذين آذوا رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام . ومن تدبّر مثلا سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه عن قوم موسى عليه السّلام يتبين أنهم سريعو التلون والتقلب ، أهل لأنّ يبدلوا سريعا نعمة الله تعالى كفرا ويحلوا قومهم دار البوار . وقد بلغ بهم كفر النعمة الدرجة التى آذوا معها رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السلام ، حتى إنّه أصبح يجيء على لسان الاستفهام فى إنكار عليهم : ما السبب فى إيذائه عليه الصلاة والسلام مع علمهم أنه رسول الله تعالى إليهم . جاء فى سورة الصف[1] قوله تعالى :﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ،فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ،والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ وها هى ذى آية الأحزاب الكريمة تنعى عليهم إيذاءهم موسى عليه السّلام رسول الله تعالى إليهم ، ناهية المسلمين لله ربّ العالمين عن التورط مع رسول الله تعالى إليهم ، محمد بن عبد الله ﷺ فيما تورط فيه بنو إسرائيل .

فما هو الأذى الذى تورط فيه قوم موسى عليه السلام ؟ وما هو الأذى الذى كاد يتورط فيه المسلمون لله رب العالمين ، فى حق محمدّ بن عبد الله ﷺ ؟ باستشارة المصادر يتبين بعض أنواع إيذاء قوم موسى له عليه الصلاة والسلام . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ موسى كان رجلا حييّا . وذلك قوله تعالى : **يا أيّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها**[2] هكذا أورد هذا الحديث ههنا مختصرا جداً »[3] وقد رواه فى أحاديث الأنبياء لهذا السند بعينه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إنّ موسى عليه السلام كان رجلا حييّا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياءً منه . فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلاّمن عيب فى جلده ، إما برص وإما أدرة[4] وإمّا آفة . وإنّ الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام

---

(١) الآية ٥

(٢) صحيح البخارى ١٥٢/٦

(٣) يشير ابن كثير إلى الإمام البخارى

(٤) بالضمّ ويحرّك وهى فتق فى إحدى الخصيتين وصاحبها الآدر بفتح الدّال ، والمأدور . وهو أدر كفرح . القاموس .

فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل[1] فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها . وإنّ الحجر عدا بثوبه . فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر . فجعل يقول ثوبى حجر . ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل ، فرأوه عريانا ، أحسن ما خلق الله عزّ وجل ، وأبرأه مما يقولون . وقام الحجر . فأخذ ثوبه فلبسه . وطفق بالحجر ضربا بعصاه . فوالله إنّ بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعا وخمسا . قال : فذلك قوله تعالى :﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيها** ﴾[2] ويعلق القرطبى على الحديث قائلا[3] : « فإن قيل كيف نادى موسى عليه السّلام الحجر نداء من يعقل ؟ قيل : لأنّه صدر من الحجر فعل من يعقل . وحجر منادى مفرد محذوف حرف النداء كما قال تعالى[4] : **يوسف أعرض عن هذا** . وثوبى منصوب بفعل مضمر التقدير : أعطنى ثوبى أو اترك ثوبى . فحذف الفعل لدلالة الحال عليه » . « وعن ابن عباس عن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم فى قوله : فبرأه الله ممّا قالوا . قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون عليه السلام فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السّلام : أنت قتلته . كان ألين لنا منك وأشد حياءً فآذوه »[5] .

أمّا الإيذاء الذى تورّط فيه أو كاد يتورّط فيه بعض المؤمنين ، فالمراد به ما قيل فى شأن زيد وزينب ، وما سمع فيه ﷺ من قالة بعض الناس . وقيل المراد حديث الإفك : على أنه ما أوذى نبى مثل ما أوذيت . وفى حديث الرجل الذى قال لقسم قسمه رسول الله ﷺ إنّ هذه القسمة ما أريد بها وجه الله تعالى . فغضب ﷺ وقال : رحم الله أخى موسى . لقد أوذى أكثر من هذا فصبر[6] ويبدو والله تعالى أعلم أن النهى يصح أن يشمل كل أنواع الأذى ، ويبدو وراء ذلك أنّه من الجائز أن يتجه فى المقام الأوّل إلى إذاية القول التى نالته ﷺ بشأن زواجه ﷺ من زينب

---

(١) استنتج القرطبى حكما شرعيا من هذا العمل فقال فى تفسيره ص ٥٣٣٣ : « فى وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله فى الماء عريانا دليل على جواز ذلك وهو مذهب الجمهور » .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٢٠

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٣٣٤

(٤) سورة يوسف ٢٩

(٥) تفسير ابن كثير ٣/٥٢٠ وانظر تفسير الطبرى ٢٢/٣٧ والبحر المحيط ٧/ ٢٥٣

(٦) البحر المحيط ٧/٢٥٢

بنت جحش مطلقة متبناه زيد بن حارثة ، لان هذه الحادثة على جهة الخصوص قد عنيت بها السورة الكريمة عناية كبيرة . وإنما يظن أنّ الإذاية تتجه إلى هذه المسألة بالذات لأنها بالإضافة إلى عناية السورة الكريمة بها عناية كبيرة كما قلنا، كان نوع الأذى الذى وصله ﷺ من جهتها كان متصلا بالقول ، أى من جنس الأذى الذى نال موسى عليه السلام كما جاء فى الحديث الصحيح الذى بين نوع الأذى الذى ناله عليه الصلاة والسلام . يضاف إلى هذا أن الآية الكريمة تنص على كون القول هو ما آذى موسى عليه السلام . ثمّ إنّ الآية الكريمة التالية تأمر المؤمنين بأن يقولوا قولا سديدا ، وذلك فى مقابل القول المؤذى الذى نهاهم الله تعالى عنه .

وقد جاء فى الصحيحين النص على أذى القول الذى ناله ﷺ . قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسما فقال رجل من الأنصار : إنّ هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . قال فقلت (عبد الله بن مسعود) : ياعدو الله . أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت . فذكرت ذلك للنبى ﷺ . فاحمرّ وجهه ثم قال : رحمة الله على موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر . أخرجاه فى الصحيحين[1] عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : لا يبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئاً فإنّى أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . فأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه . والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة . قال : فثبت حتى سمعت ما قالا ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله : إنّك قلت لنا . لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئاً وإنى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا . فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه ثم قال : دعنا منك . لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر »[2]«وما موصوله أو مصدرية »[3] .

إن ربّ العزة قد برأ موسى عليه السلام . وإنّ لسان الحال يقول : إنّ ربّ العزة سيبرىء رسوله المصطفى ﷺ فيما لو فرض أن تورّط أحد من المسلمين فى إيذائه ﷺ بأى ضرب من ضروب القول . لا بل إنّ الأمر لا يقف عند هذا الحد . فقد

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٢١/٣

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢١/٣ وانظر تفسير القرطبى ٥٣٣٢

(٣) البحر المحيط ٢٥٣/٧

جاء عن موسى عليه السلام القول : « وكان عند الله وجيها » . وإنّ لسان الحال يقول : إن لعبدنا المصطفى ﷺ منزلته ووجاهته الخاصة به ﷺ . أليس كل من الرّسولين قد أوذى من قومه فصبر ؟ بلى . أليس كل من الرّسولين الكريمين من أولى العزم من الرسل ؟ بلى . ولكن محمدا بن عبد الله ﷺ أولهم . أليس كل من الرّسولين قد اصطفاه الله تعالى بكتاب سماوى ؟ بلى . ولكن جاء عن التوراة الكتاب الذى أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام قوله تعالى فى سورة المائدة[1] : ﴿ **إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** ﴾ فربّ العزّة أوكل إلى رجال الدين اليهودى المحافظة على التوراة نصا وروحا وبطبيعة الحال لم يؤدوا حق الأمانة بل خانوا العهد واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، أمّا القرآن الكريم كتاب الله تعالى الأخير إلى البشرية والذى أنزله الله تعالى على خاتم النبيين فقد جاء فى حقه قوله تعالى[2] : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » .

ومن هذه المقارنة يتبين أنّ موسى عليه السلام ، إذا كان عند الله وجيها ، فإنّ للمصطفى ﷺ عند ربّه من الوجاهة الشيء الكثير . وقد رأينا فى هذه السورة الكريمة أن ربّ العزة يخاطب المصطفى ﷺ كما يخاطبه فى القرآن الكريم كلّه وحده بالقول : يا أيها النبى . يا أيها الرسول . بينما يخاطب موسى وعيسى وكل رسل الله تعالى الآخرين بأسمائهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومعنى القول وكان عند الله وجيها : أى له وجاهة وجاه عند ربّه . قال الحسن البصرى :كان مستجاب الدّعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه . ولكن منع الرّؤية لما يشاء الله عز وجل . وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله أنّه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه فأجاب الله سؤاله فقال : ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا[3] .

وقرأ الجمهور : وكان عند الله . الظرف معمول لوجيها ، أيها ذو وجه ومنزلة عند الله تميط عنه الأذى وتدفع التهم . وقرأ عبد الله والأعمش وأبو حيوة « عبد » من

---

(١) سورة المائدة ٤٤

(٢) سورة الحجر ٩

(٣) تفسير ابن كثير ٥٢١/٣ وانظر البحر المحيط ٢٥٣/٧ والكشاف ٥٥١/٢

العبوْدية لله جرّ بلام الجر . وعبداً خبر كان . ووجيها صفة له[1] وهذه قراءة ابن مسعود[2] قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها** ﴾ . إذا كان النهى عن التشبه ببنى إسرائيل فى إيذائهم بألسنتهم رسول تعالى إليهم موسى عليه السلام هو طريقة الآية الكريمة السّابقة فى مخاطبتها للمؤمنين ، فإنّ الأمر المباشر بالخير لهؤلاء المؤمنين هو طريقة الآية الكريمة التالية . وهى تجمع بين الفعل والقول معا . وهى تبدأ فى ذات الطريقة التى بدأت بها الآية الكريمة السابقة : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا ﴾ فنحن بصدد تكرار صفة الإيمان ، أحسن صفات هؤلاء المسلمين لله ربّ العالمين . وذلك من ناحية دليل على منزلة هؤلاء المؤمنين المتقين عند بارئهم ، ومن ناحية أخرى دليل على أهمية ما يلقى إليهم من أوامر ونواه . ونحن بصدد أمرين اثنين ، تقوى الله والقول السديد : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا** ﴾ أمّا الأمر بتقوى الله تعالى فإنّه يمثل منتهى ما يطلب من المسلم لله ربّ العالمين ، لأنه التقوى تمثل درجة الإحسان التى نص عليها الحديث النبوى الشريف ، وعرفها بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . ومعروف أنّ هذه المراقبة لله تعالى فى السّرّ والعلن . بشأن كل صغيرة وكبيرة تشمل كلّ الأفعال وكل الأقوال . فلماذا أردف هذا الأمر الأوّل الشامل الأقوال والأفعال معاً ، بالأمر الثانى الذى يخص الأقوال والذى يوجهها الوجهة السديدة السليمة ؟ لاشك أنّ الأمر بتقوى الله تعالى يشمل الأقوال والأفعال معا ، ولكن بما أنّ الأقوال هى قوام الأذى الذى نهت الآية الكريمة السّابقة المسلمين عن التشبه ببنى إسرائيل فيه ، إذْ آذوا رسول الله تعالى إليهم ، وبما أنّ فلتات اللسان وزلات القول ممّا يتسامح الناس بشأنها ولا يفطنون إلى خطورتها وكونها سببا من أهم الأسباب التى تكب الناس على وجوههم فى نار جهنم ، وعدم فطنتهم إلى كون حصائد الألسنة وغير السديد من القول ممّا يفسد التقوى بل يدخل النار وبئس القرار ، لكل ذلك نصت الآية الكريمة على صفة القول الذى ينبغى أن يتفوه به المؤمنون ، والذى ينبغى أن يكون سديدا . وفى ذلك تأكيد للنهى الذى جاء فى الآية الكريمة السابقة .

---

(١) البحر المحيط ٢٥٣/٧

(٢) البحر المحيط ٢٥٣/٧

فما معنى : ﴿ وقولوا قولاً سديدا ﴾ ؟ أى قصداً وحقا . قال ابن عباس : أى صوابا[1] يقول : قولوا فى رسول الله والمؤمنين قولاً قاصداً غير جائر ، حقاً غير باطل[2] وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض[3] يقال : سدّد السهم نحو الرمية إذا لم يعدل به عن سمتها. كما قالوا سهم قاصد. والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول . والبعث على أن يسد قولهم فى كل باب ، لأنّ حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله[4] .

« عن أبى موسى الأشعرى قال : صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال : إنّ الله تعالى أمرنى أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديدا . ثمّ أتى النساء فقال : إنّ الله أمرنى أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولاً سديدا »[5] « قال عكرمة : القول السّديد : لا إله إلاّ الله . وقال غيره : السّديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكل حق »[6] .

وما هى ثمرة طاعة المؤمنين لله تعالى ورسوله الكريم فانتهوا عما نهاهم الله عنه من قول ما يؤذى رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وائتمروا بأمره جلّ وعلا بتقوى الله تعالى والقول قولاً سديدا ؟ الثمرة فى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : **﴿ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾**. وللزمخشرى كلام جيد فى علاقة الآية الكريمة بسابقتيها ولاحقتيها يقول[7] : « وهذه الآية مقررة للتى قبلها ، بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله ﷺ ، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى فى حفظ اللسان ليترادف عليهم النهى والأمر ، مع إتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام ، وإتباع الأمر الوعد البليغ . فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه » .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٣٣٥
(٢) تفسير الطبرى ٣٨/٢٢
(٣) تفسير القرطبى ٥٣٣٥ والبحر المحيط ٢٥٣/٧
(٤) الكشاف ٥٥١/٢
(٥) تفسير ابن كثير ٥٢١/٣
(٦) تفسير ابن كثير ٥٢١/٣
(٧) الكشاف ٥٥١/٢

وما معنى : « يصلح لكم أعمالكم » ؟ والمعروف أنّ الأعمال أساساً صالحة لأنّ الصلاح شرط التقوى ؟ المعنى يزدكم صلاحا إلى صلاحكم وهُداكم إلى هداكم ، وسداداً إلى سدادكم ، ويتجلى ذلك بدرجة كبيرة فى الأعمال الصالحة التى يوفقكم دائماً وأبداً للقيام بها . فنحن إذن بصدد درس قرآنى عظيم مفاده أن الثبات على التقوى لا يكون إلاّ بتوفيق الله تعالى وعونه وتأييده . وإنّ من مظاهر توفيق الله تعالى للعبد استمراره على عمل الصالحات والتلفظ بالسديد من القول . وقد قال تعالى[1] **﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلاّ أولو الألباب ﴾** وقال تعالى[2] : « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾** . وقال تعالى[3] : **﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾** .

وليس معنى سداد قول المؤمنين وصلاح أعمالهم أنهم لا يصح أن يصدر عنهم لمم الذنوب أى صغار الذنوب . فقد قال تعالى[4] : **﴿ ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللمم إنّ ربّك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمّهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾** . وها هى ذى الآية الكريمة فى جزئيتها الثانية تشير إلى مغفرة الله تعالى الواسعة : « يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم » وانظر إلى الجار والمجرور « لكم » الذى تكرر كى يتبين أنّ الحديث لازال عن هؤلاء المؤمنين المتقين . إنّ ربّ العزّة يقبل توبتهم فيغفر لهم ذنوبهم ويستوى فى ذلك ذنوبهم السابقة واللاحقة . وقد عرفنا أنّ من أهم سماتهم أنّهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . وسيتبين أنّ آخر آيات السورة الكريمة تنصّ على توبة هؤلاء المؤمنين المتقين التى يتفضل ربّ العزة بقبولها .

إنّ التقوى هى الإحسان كما عرفنا . ويتحقق كل منهما بطاعة الله تعالى وطاعة

---

(١) سورة البقرة ٢٦٩
(٢) سورة النحل ٩٧
(٣) سورة محمّد ١٧
(٤) سورة النجم ٣١ ، ٣٢

رسوله ، وسيكون ثواب المتقى المحسن جزيلا . إنّه النجاة من النار والفوز بالجنة . قال تعالى : « **ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما** » يقول تعالى ذكره : ومن يطع الله ورسوله فيعمل بما أمره به وينتهى عما نهاه ويقل السديد ، فقد فاز فوزا عظيما . يقول : فقد ظفر بالكرامة العظمى من الله[1] « وذلك أنّه يجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم[2] وهذه الآية الكريمة تأخذ بسبب من قوله تعالى فى سورة آل عمران[3] : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت . وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز .وما الحياةالدّنيا إلاّ متاع الغرور** ﴾ على أنّ آية سورة الأحزاب تؤكد الفعل « فاز » بالفوز مصدره . وتصف الفوز بأنّه عظيم . وإذا كان الفوز يعنى الجنة ، فكأنّ الفوز العظيم يأخذ بسبب من الآية الكريمة فى سورة يونس فى ثواب الذين أحسنوا . قال عزّ من قائل[4] : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة . أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ . والحسنى : الجنة وزيادة : هى النظر إليه تعالى كما فى حديث مسلم[5] قال تعالى : ﴿ **يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما** ﴾.

وإذا كنا استأنسنا برأى الزمخشرى فى علاقة الآية الكريمة بسابقتها فلنستأنس برأيه كذلك فى علاقة الآية الكريمة بلاحقتها يقول[6] رحمه الله تعالى : « لما قال : ومن يطع الله ورسوله ، وعلق بالطاعة الفوز العظيم . أتبعه قوله : إنّا عرضنا الأمانة » فمع الآية الكريمة التالية . قال تعالى : ﴿ **إنّا عرضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوما جهولاً** ﴾.

إنّ هذه الآية الكريمة تبين أنّ ربّ العزة قد عرض على السماوات والأرض والجبال الفرائض والتكاليف . فمن أطاع ووفى أثيب ومن عصى ونكص عوقب . ولكن

---

(١) تفسير الطبرى ٣٨/٢٢
(٢) تفسير ابن كثير ٥٢١/٣
(٣) الآية ١٨٥
(٤) سورة يونس ٢٦
(٥) تفسير الجلالين .
(٦) الكشاف ٥٥١/٢

السماوات والأرض والجبال أبين أن يحملن هذا الثِّقْل العظيم ، ثقل أمانة التكاليف وأشفقن من عدم الالتزام بما قبلن من عرض . وحينما عرضت على جنس الإنسان ، ممثلا فى آدم عليه السلام ، الذى يصغر كثيراً ، فى الحجم والطاقة ، أصغر الجبال التى لا تكاد تبين فى انسياح الأرض التى لا تكاد تبين هى بدورها فى انسياح السماوات السبع ، فإنّ آدم عليه السلام ، ممثلا لهذا الجنس الذى حارت البريّة فيه ، والذى هو حيوان مستحدث من جماد ، قد قبل العرض ، ورضى بحمل التكاليف التى نكصت عن حملها السماوات والأرض والجبال ! إنّ هذا الإنسان كما تقرّر الآية الكريمة بصريح اللفظ . ظلوم لنفسه . هكذا فى صيغة المبالغة « فعول » وليس فى صيغة اسم الفاعل « ظالم » . وجهول ، هكذا فى صيغة المبالغة فعول كذلك وليس فى صيغة اسم الفاعل جاهل . إنّ الإنسان ظلوم لنفسه حينما حمّلها هذا العبء الذى أبت حمله السماوات والأرض والجبال ، وأشفقت منه ، وجهول لحقيقة طاقته وكفاءته وصبره ومصابرته وقدرته على الالتزام بما وعد والوفاء بما عليه عاهد .

ونحن نودّ أن نسير مرّة أخرى مع الآية الكريمة خطوة خطوة . إنّ الآية الكريمة فى صيغة التعبير المؤكد بإنّ المقرون بها نون العظمة « إنّا » لتبين بأنّه جل وعلا قد عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال . والمراد بالأمانة كما يقول ابن عباس الفرائض[1] وقال آخرون : هى الطاعة[2] وقال قتادة : الأمانة الدّين والفرائض والحدود[3] وكل هذه الأقول لا تنافي بينها ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها . وهو أنّه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب »[4] ويقول أبو حيان[5] : « والأمانة الظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى وشأن دين ودنيا . والشرع كله أمانة . وهذا قول الجمهور . ولذلك قال أبيّ بن كعب : من الأمانة أن اؤتمنت المرأة على فرجها . وقال أبو الدّرداء : غسل الجنابة أمانة » .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٢٢/٣ وتفسير القرطبى ص ٥٣٣٦ ، و ص ٥٣٣٧

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٢/٣ وهو كذلك رأى ابن عباس . وانظر تفسير ابن كثير ٥٢٢/٣ والكشاف ٥٥١/٢

(٣) تفسير ابن كثير ٥٢٢/٣

(٤) تفسير ابن كثير ٥٢٢/٣

(٥) البحر المحيط ٢٥٣/٧

ويقول القرطبي[1] : « عن ابن عباس فى قوله تعالى : إنّا عرضنا الامانة على السماوات والأرض والجبال . قال : الأمانة الفرائض . عرضها الله عزّ وجل على السماوات والأرض والجبال . إن أدّوْها أثابهم . وإن ضيّعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألاّ يقوموا به . ثمّ عرضها على آدم فقبلها بما فيها . قال النحاس : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير » .

والمتدبر لضآلة حجم الإنسان بالقياس إلى الجبال ، فضلا عن الأرض والسماوات ، وإقدام هذا المخلوق الضيئل الحجم يتبين فيه عدم التزام أفراد هذا الجنس ، إلاّ من رحم ربّك . وقليل ما هم ، بما يتمشى مع قبول حمل الأمانة ، يدرك بعض المعانى العظيمة العميقة ، من وصف الآية الكريمة لهذا الإنسان بأنّه ظلوم وبأنه جهول . لننظر أوّلا إلى ما يتمشى مع ظلم هذا الإنسان لنفسه ، وليكن ذلك عن طريق المقارنة بين حجم هذا الإنسان وحجم السماوات والأرض والجبال ، هكذا بصيغة جمع الجبال . بين قوة هذا الإنسان وقوة السماوات والأرض والجبال . إنّ القرآن الكريم لينص بصريح اللفظ على أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . جاء فى سورة غافر قوله تعالى[2] : « **لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » كما ينص على أنّ ثمة سبع سماوات وأنّ من الأرض مثلهن ، وأنّ ربّ العزة قد زين السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد . ومعروف أنّ القمر الذى وطأته قدم الإنسان بعد لأي ، هو أقرب الكواكب إلى الأرض . وعن الكواكب البعيدة والنجوم والمجرّات ~~والسدم~~ . بل عن السماوات نفسها التى تزداد اتساعا وامتدادا حدث ولا حرج . قال تعالى[3] : **﴿ الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أنّ الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾** . وقال تعالى[4] : **﴿ إنّا زيّنا السماء الدّنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسّمعون**

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٣٣٧ وانظر تفسير ابن كثير ٥٢٢/٣

(٢) سورة غافر ٥٧

(٣) سورة الطلاق ٢

(٤) سورة الصافات ٦ – ١٠

إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ وقال تعالى[1] : **﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون ﴾**.

ولا تكتفى الآية الكريمة بإطلاق لفظ الأرض الذى يفهم منه كلّ متعلقاتها ، إنّما تنص على أقوى أجزاء الأرض صلابة ، وهى الجبال ، بأنها هى الأخرى أبت أن تحمل الأمانة وأشفقت منها . ونحن فى غنى عن الإشارة إلى الفرق الهائل فى الحجم بين أصغر الجبال حجما وبين الإنسان الذى يعتبر بالمقارنة إليها فى الحقيقة قزما . ولا يقف الأمر عند الحجم ، إنّما يتجاوز ذل إلى لبّ الموضوع وجوهره ، القوة والصلابة . ونحن كذلك فى غنى عن الإشارة إلى ضعف الإنسان وعجزه أمام هذه الجبال التى يستعين الإنسان عليها ويتحايل بمختلف الوسائل المادّية التى يأخذ الإنسان ينميها . وفى المقابل تأخذ الجبال بمرور طويل الأوقات فى التكون من جديد ، غير شاعرة بوجود هذا الإنسان . وانظر إلى لفت القرآن الكريم انتباه الإنسان المختال الفخور إلى حقيقة حجمه وطاقته ، بأنه حينما يتطاول ، ويكاد يمشى على رءوس أصابعه اختيالا على عباد الله تعالى ، يظل مشدوداً إلى هذه الأرض ، ويظل رغم مده جسمه ومطّه له ، غير بالغ مثل قصار الجبال طولا ، فضلا عن طوالها . قال تعالى[2] : **﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ، إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾** .

ولا تكتفى الآية الكريمة بإثبات إباء السماوات والأرض والجبال حمل الأمانة ، ورفضها ذلك ، إنّما تتجاوزه إلى تبيين السبب فى ذلك الإباء ممّا هو معمق له مقو . إنّه الإشفاق من الأمانة ، بألاّ تستطيع السماوات والأرض والجبال الوفاء بما التزمت به من واجب القيام بحقّ قبول الفرائض والتكاليف . ومع أنّ الإشفاق ، ومعناه شدةّ الخوف ، مقو للإباء ومعمق له ، إلاّ أنه فى الوقت ذاته بمثابة السبب للرفض والمبرر للإباء . وكأن لدى هذه الجمادات من الإدراك ، وتمثل العبء ، وأبعاد قبول العرض ، وما يترتب عليه من التزامات ، ما أيقنت معه عجزها من الوفاء

---

(١) سورة الذاريات ٤٧

(٢) سورة الإسراء ٣٧

بكل المتطلبات المقترنة بقبول العرض ، فآثرت السلامة ، واكتفت بألاّ يكون الأمر عليها ولا لها . فأبت قبول العرض وأعلنت إشفاقها من قبوله « من غير معصية ولكن تغظيما لدين الله ألاّ يقوموا بها »[1] ، أى بالأمانة بمعنى الفرائض كما يقول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما[1] .

وبناءً على العرض والإباء والإشفاق برز سؤال غاية فى الأهمية هو : هل الكلام هنا على حقيقته أم أنّه من قبيل المجاز ؟ وقد ذهب إلى كل من الرّأيين فريق من العلماء . « قال العوفى عن ابن عباس يعنى بالأمانة الطاعة التى عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إنّى قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب . وما فيها ؟ قال : إنّ أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى : وحملها الإنسان إنّه كان ظلوما جهولاً »[2] قال النحاس : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير[3] ويقول أبو حيّان[4] : « والظاهر عرض الأمانة على هذه المخلوقات العظام . وهى الأوامر والنواهى ، فتثاب إنْ أحسنت وتعاقب إن أساءت فأبت وأشفقت . ويكون ذلك بإدراك خلقه الله فيها . وهذا غير مستحيل . إذ قد سبح الحصى فى كفه عليه الصّلاة والسّلام . وحنّ الجذع إليه . وكلمته الذراع . فيكون هذا العرض والإباء حقيقة . قال ابن عباس : أعطيت الجمادات فهما وتمييزا فخيرت فى الحمل . وذكر الجبال مع أنها من الأرض لزيادة قوتها وصلابتها تعظيما للأمر . وقال ابن الأنبارى : عرضت بمسمع من آدم عليه الصلاة السلام . وأسمع من الجمادات الإباء ليتحقق العرض عليه فيتجاسر على الحمل غيره ، ويظهر فضله على الخلائق ، حرصا على العبودية وتشريفا على البرية بعلو الهمة » .

« وقيل : هو مجاز فقيل من مجاز الحذف أى على من فيها من الملائكة . وقيل من باب التمثيل »[5] ويستمر أبو حيّان[6] قائلا : « وقال قوم : الآية من المجاز . أى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٢٢

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٢٢ وتفسير القرطبى ص ٥٣٣٧

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٣٣٧

(٤) البحر المحيط ٧/٢٥٣

(٥) البحر المحيط ٧/٢٥٣

(٦) البحر المحيط ٧/٢٥٤

إذا قايسنا نقل الأمانة بقوة السماوات والأرض والجبال رأيتهما لا تطيقها وأنها لو تكلمت لأبتها وأشفقت عنها . فعبر عن هذا المعنى بقوله : إنا عرضنا الآية . وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه وأنت تريد بذلك مقارنة قوته بثقل الحمل فرأيتها تقصر عنه . ونحوه قول ابن بحر معنى عرضنا عارضناها وقابلناها بها » .

وقد ذهب الزّمخشرى إلى كون الكلام من قبيل المجاز ، وله تفسير طريف نورده ، فإنه هو المنطلق الذى اعتمده أبو حيان فى حديثه عن المجاز . يقول الزمخشرى[1] : « وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز ... ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب . وما جاء القرآن إلاّ على طرقهم وأساليبهم . من ذلك قولهم : لو قيل للشحم أين تذهب لقال: أسوى العوج. وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات وتصوّر مقاولة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه كما أن العَجْف مما يقبح حسنه . فصور أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع فى نفس السامع وهى به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف . وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها » .

« وأمّا حمل الأمانة فمن قولك فلان حامل للأمانة ومحتمل لها . تريد أنه لا يؤدّيها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها لأن الأمانة كأنّها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها . ألا تراهم يقولون : ركبته الديون . وعلي عليه حق . فإذا أدّاها لم تبق راكبة له ولا هو حاملا لها »[2] .

وإنّ الفريق من العلماء الذين ذهبوا إلى كون الكلام على الحقيقة ، كأنهم اعتمدوا على ظاهر معنى أمثال هذه الآيات الكريمات ، إضافة إلى الأحاديث النبوية الشريفة . جاء فى سورة الإسراء[3] قوله تعالى : ﴿ **تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن . وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا** ﴾ وجاء فى سورة الحج[4] قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر**

---

(١) الكشاف ٥٥٢/٢ وانظر مجمع الأمثال ١٠٨/٢ مثل رقم ٢٩٠٤

(٢) الكشاف ٥٥٢/٢

(٣) الآية ٤٤

(٤) الآية ١٨

والدوابّ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم . إنّ الله يفعل ما يشاء ﴾ . وجاء فى سورة النحل[1] قوله تعالى :**﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجّدا لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾** وجاء فى سورة النور[2] قوله تعالى :**﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بمايفعلون ﴾** وجاء فى سورة الرّعد[3] قوله تعالى :**﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشيء السحاب الثقال . ويسبح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال . له دعوة الحقّ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلاّ فى ضلال . ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾**.

وهكذا يتبين أنّ الذين ذهبوا إلى كون الكلام على الحقيقة ، قد نظروا فى ضوء أمثال هذه الآيات الكريمات والأحاديث النبوية الشريفة إلى هذا التكليف والاعتذار ، من زاوية ما يرتبط به من قدرة مطلقة للقادر على كل شيء الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء . وأمّا الذين ذهبوا إلى كون الكلام من باب التمثيل فلأنهم نظروا إلى هذه الجمادات من زاوية ظاهرها وواقعها الملموس المشاهد . فهى فى ظاهرها لا تعقل ولا تتكلم ، وبالتالى فالكلام من باب المجاز . وكأن المراد الإشارة إلى عظم التبعة ، وضخامة المسئولية التى تجرّأ الإنسان عليها فقبل حملها . بحيث إنّ السماوات على ضخامتها ، والأرض على عظمها والجبال على صلابتها ، لو عرض على كل منها حمل الأمانة لأبت بشدة ولاعتذرت بإشفاق .

إنّ كلاً من الرّأيين اللذين يصح قبولهما ، يفهم منه ضخامة المعنى الذى يرتبط بالقول بعد ذلك مباشرة **﴿ وحملها الإنسان ﴾** قال ابن عباس وابن جبير : التزم القيام

---

(١) الآيات ٤٨ - ٥٠

(٢) الآية ٤١

(٣) الآيات ١٢ - ١٥

بحقّها . والإنسان آدم . وهو فى ذلك ظلوم نفسه ، جهول بقدر ما دخل فيه . وقال ابن عباس : ماتم له يوم حتى أخرج من الجنة »[1].

سبحان الله الذى لا إله إلاّ هو . تأبى السماوات والأرض والجبال أن تحمل الأمانة وتشفق من تبعتها ، ويجرؤ الإنسان الذى خلق من نطفة من ماء مهين والذى هو بالقياس إلى أصغر الجبال لا يكاد يبين ، فضلا عن كبار الجبال ، أو الأرض ، أو السماوات هكذا بصيغة الجمع ، يجرؤ الإنسان على أن يقبل حمل الأمانة . إنّ أبلغ وصف يستحقه هذا الإنسان الجسور المغرور المخدوع عن حقيقة قدره ، ما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ إنّه كان ظلوما جهولا ﴾ .

وانظر إلى أداة التوكيد التى يصدر بها التذييل على قبول الإنسان حمل الأمانة « إنّه » وانظر إلى التعبير « كان » الذى ينسحب على كل الأزمنة وكل المواقف . إنّ الإنسان دائماً وأبدا هو الظلوم الجهول .

فما معنى الظلوم ؟ سبق أن تبينا أنّنا بصدد إحدى صيغ المبالغة فعول ولسنا فقط بصدد صيغة اسم الفاعل « ظالم » والظلوم هو الشديد الظلم . المراد هنا أن الإنسان شديد الظلم لنفسه[2] لأنّه حملها حملا ثقيلا ظن أنّه قادر على حمله والقيام بحقه . وما معنى الجهول ؟ وواضح أنّنا بصدد الصيغة ذاتها والعدول عن الوصف باسم الفاعل جاهل إلى الوصف بصيغة المبالغة جهول . والمراد أنّه غِرٌّ بأمر الله[3] جهول بربه[4] جهول بقدر ما دخل فيه[5] .

ولو أنا بشأن لفظة « جهول » استشرنا المعاجم اللغوية لاستطعنا أن نتبين أنّ صغية المبالغة جهول مأخوذة من الجهل . والجهل أساساً ضد العلم والخبرة . ومنه تفرع المعنى الآخر للجهل ضدّ الحلم والعقل ، بمعنى الطيش والنزق والسفة والحمق . جاء فى اللسان[6] : « الجهل نقيض العلم .. والجهالة أن تفعل فعلا بغير

---

(١) البحر المحيط ٢٥٤/٧

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٨/٢٢ وتفسير القرطبى ص ٥٣٣٧ والبحر المحيط ٢٥٤/٧

(٣) تفسير ابن كثير ٥٢٢/٣ وتفسير الطبرى ٣٨/٢٢

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٣٣٧

(٥) البحر المحيط ٢٥٤/٧

(٦) « جهل »

العلم .. قال ابن جنّى : قالوا جهلاء كما قالوا علماء حملاً له على ضده . ورجل جهول كجاهل .. والمجهلة : ما يحملك على الجهل ومنه الحديث : الولد مبخلة مجبنة مجهلة. وفى الحديث إنّكم لتجهّلون وتبخّلون وتجبّنون ، أى يحملون الآباء على الجهل بملاعبتهم إيّاهم حفظا لقلوبهم .. وفى حديث ابن عباس أنّه قال : من استجهل مؤمنا فعليه إثمه . قال ابن المبارك : يريد بقوله : من استجهل مؤمنا ، أى حمله على شيء ليس من خلقه فيغضبه فإنّما إثمه على من أحوجه إلى ذلك .. وقوله تعالى : يحسبهم الجاهل أغنياء يعنى الجاهل بحالهم ولم يرد الجاهل الذى هو ضدّ العاقل . إنّما هو الجهل الذى هو ضدّ الخبرة . يقال : هو يجهل ذلك أى لا يعرفه .. وفى الحديث : إنك امرؤ فيك جاهلية . هى الحال التى كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك . وكلّ ما استخفك فقد استجهلك .. واستجهلت الرّيح الغصن حرّكته فاضطرب » .

من هذه الاقتباسات الكثيرة المتعددة من لسان العرب ، يتبيّن المعنيان الرّئيسيان للفظ الجهل . المعنى الأول الأساسى هو الجهل ضد العلم والخبرة . والمعنى الثانى المتفرع عن الأول المرتبط به والناتج عنه هو الجهل ضد العلم والعقل . وإنما قلنا إنّ الجهل ضدّ العلم والخبرة هو الأساس ، لأنا فى استعمالنا البسيط العادى . حينما نذكر لفظ العلم ونريد ما يقابله يتبادر إلى الذهن توّا لفظ الجهل . وبما أن الجهل يرتبط به فى العادة الإتيان من قبل الجاهل بمالا يحسن مما يترتب عليه ردّ فعل عند الآخرين المحتكين به ، قد لا يتقصر على إحساسهم بأنهم بصدد شخص غير عالم ، إنّما يتجاوزه إلى الاستخفاف به واستجهاله واستحماقه ، لأنّه فى الوقت الذى بدا منه ما يفيد الجهل ضدّ العلم ، بدر منه ما يفيد الجهل ضدّ العقل والحلم . ولهذا نحن نتبين فى إطلاق لفظ الجاهلية السببين معاً . الأوّل هو الجهل بالصراط المستقيم . والثانى هو المترتب على ذلك الجهل ، حينما أتوا من الأعمال ما يفيد الخفة والطيش والنّزق . ومنه الحديث النبوى الشريف : إنّك امرؤ فيك جاهلية . ومنه قولهم : استجهله بمعنى عدّه جاهلا . واستخفّه . ومنه قول الشاعر قيس بن زهير من مقطوعة يرثى بها حمل بن بدر الذى قتله الرّبيع بن زياد فى يوم الهباءة أحد أيام

داحس والغبراء[1] :

أظن الحِلْمَ دلّ علىّ قومى وقد يستجهَلُ الرّجل الحليم

فى ضوء هذه المعانى نستطيع أن نفهم أنّ لفظة « جهولا » فى الآية الكريمة تدلّ أساساً على الجهل ضد العلم والخبرة وارتبط بذلك ، بدلالة الالتزام ، الجهل بمعنى الخفة والتسرع وعدم التثبت . لقد جاء فى شأن علم الإنسان المحدود وحاجته المستمرة إلى العلم قوله تعالى[2] : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا** ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ **وقل ربّ زدنى علما** ﴾ وجاء بشأن خفة الإنسان وتسرعه وعجلته قوله تعالى[4] : ﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ .

ولو أنّا من ناحيتنا نظرنا إلى الإنسان من زاوية قبوله بلسان المقال أو بلسان الحال الأمانة ، وبحثنا عن الأسباب التى دفعته إلى هذا القبول ، أو التى هيّأته لحمل الأمانة ، لتبينا أن ربّ العالمين ، العليم الخبير ، الذى ليس للزمن علاقة مطلقا بعلمه جل وعلا ، قد سبق إلى علمه هذا الموقف الذى سيقفه من الأمانة جنس الإنسان ، لأنّ ربّ العزة الذى شاءت إرادته ذلك ، قد أوجدت الإنسان فى الهيئة التى تجعله أهلا لقبول العرض بحمل الأمانة ، مع كون هذا الإنسان ظلوما لنفسه جهولا بحقيقة قدره ، إلاّ من رحم ربّك وقليل ما هم . ونحن إذا تجاوزنا طموحات هذا الإنسان التى ليس لها حدود ، حتى إنّه منته نفسه بالخلود وبالملك الذى لا يبلى ، فاستطاع الشيطان الرّجيم أن يستخفّه من هذه الزاوية ويخدعه من نقطة الضعف هذه. وإلى ذلك أشار مثلا قوله تعالى فى سورة الأعراف[5] : ﴿ **فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾ وقوله تعالى من سورة طه[6] : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾ إذا نحن تجاوزنا

---

(١) مجمع الأمثال للميدانى ١١٦/٢ المثل رقم ٢٩٢٥ « قد وقع بينهم حرب داحس والغبراء » وانظر العقد الفريد ١٥٧/٥

(٢) سورة الإسراء ٨٥

(٣) سورة طه ١١٤

(٤) سورة الإسراء ١١

(٥) الآية ٢٠

(٦) الآية ١٢٠

ذلك ، فإنا نتبين أنّ ثمّة مجموعة من الأمور هيأت الإنسان – على علاته – كى يكون المهيأ دون سواه لتحمل هذه المسئولية . وهى على النحو التالى :

١ – إنّ ربّ العزّة أراد لهذا الإنسان أن يكون خليفته فى أرضه . فأسجد له فى هيئة أبينا آدم عليه السلام أبى البشر ، الملائكة الكرام ، وعلّمه جلّ وعلا مالم يعلمه الملائكة الكرام . وإلى هذه الحقائق أشارت الآيات الكريمات من سورة البقرة[1] قال تعالى : ﴿ **وإذ قال ربّك للملائكة إنّى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنّك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ .

وإنّ أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم عليه السلام ، أفهم منزلة آدم عليه السّلام العالية الرّفيعة عند بارئه ، ويلحق به من ذريته من قام بتحقيق السَّبب الذى من أجله خلق ، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، بمفهوم العبادة الواسع فى الإسلام ، بمعنى أن يريد المسلم لله ربّ العالمين ، بكلّ أعماله وجه ربّه الأعلى ، فتكون بذلك كل الأعمال عبادة كالصلاة والزكاة والصيام والحج . وإنّ من العلماء من ذهب إلى كون الإنسان الذى يحقق ذلك الهدف ويتّقى الله تعالى حق تقاته ، يظل يرتفع منزلة وسموا حتى يصل إلى درجة الملائكة ، بل يتقدم الملائكة . وإنّ السبب الذى جعل ذلك الفريق من العلماء يذهبون هذا المذهب ، هو أنّ الإنسان الذى كرّمه ربه جلّ وعلا ، ثنائي الإرادة ، يمكن أن يصدر عنه كل من الخير والشر . وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى[2] : ﴿ **إنّا هديناه السَّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً** ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ والمراد بالنجدين طريق الخير وطريق

---

(١) الآيات ٣٠ – ٣٤

(٢) سورة الإنسان ٣

(٣) سورة البلد ١٠

الشر[1] وقوله تعالى[2] : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ والمراد بين لها طريق الخير والشر[3] وحينما يصل الإنسان إلى تلك المرتبة العالية الرفيعة فى مجال التقوى ، فذلك يعنى المجهود الضخم الذى وفقه الله تعالى من أجل توجيهه إلى مرضاته جل وعلا ، بينما الملائكة مفردو الإرادة لا يصدر عنهم إلاّ الخير . وقد قال عزّ من قائل فى حقهم[4] : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ فهم لا يعرفون سوى الطاعة ومن هنا صحّ فى رأى هؤلاء تقديم الإنسان الذى تلك صفته على الملائكة ، لأنّه انصرف بعون الله تعالى ثم باجتهاده عن الشّر بالكلية واتجه إلى الخير بالكلية . وقد قال عز من قائل فى حق هذا الإنسان[5] :﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾.

وفيما يتصل بميزة العلم التى خص الله تعالى بها آدم عليه السّلام ، هى دليل على استعداد هذا الإنسان لأن يتعلّم ويتعلّم . وحينما يريد الله تعالى بإنسان خيراً يفقهه فى الدين ، كما أشار إلى ذلك الحديث النبوى الشريف . ومن مظاهر العلم الذى انتهى إليه جنس الإنسان حتما هو أنه مقصر فى جنب الله تعالى . من هو الشخص العابد لله تعالى حق العبادة الذى يستطيع أن يزعم أنّه يقوم بما يجب عليه كفاء نعم الله تعالى عليه الظاهرة والباطنة ؟ إنّ المصطفى ﷺ ، خير خلق الله تعالى كلهم ، والذى غفر الله تعالى له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، يعبد الله تعالى حتى تتفطّر قدماه ، ويبين الحكمة من ذلك للمتعجب من كثرة عبادته ، بأنه يريد أن يكون عبدا شكورا . وفوق ذلك هو يقرّر أنّه لا يدخل الجنة إلاّ أن يتغمده الله تعالى برحمته ، فيتفضل عليه بقبول أعماله الحسنة ويثيبه عليها ويزيده من فضله جل وعلا .

٢ – إذا كان جنس الإنسان يمتاز عن الملائكة فى الملأ الأعلى بكونه ثنائىّ الإرادة فإنّه يتميز على كل سكان هذا الكوكب الأرضى بنعمة العقل ، إنّ نعمة العقل تستطيع بعون الله تعالى أن تبين له طريق الخير كى يتبع ، وطريق الشر كى

---

(١) تفسير الجلالين
(٢) سورة الشمس ٨
(٣) تفسير الجلالين
(٤) سورة التحريم ٦
(٥) سورة الإسراء ٧٠

يتنكّب. وهنا هو بحاجة بعون الله تعالى إلى الإرادة التى تترجم أوامر العقل والنقل إلى عمل .

٣ – الإنسان قد فطره الله تعالى على عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له . وإنّ هذه الفطرة على درجة كبيرة من الرّهافة والشفافية ، بحيث إنها يصحّ أن تنحرف إذا ران عليها ما يغطيها أو ينحرف بها عن الجادّة . وقد جاء فى هذه الفطرة التى فطر الله تعالى الإنسان عليها والمتجهة بطبعها إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . قوله تعالى[1] : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا كلّ حزب بما لديهم فرحون** ﴾ وليس ببعيد عن أذهاننا حديث المصطفى ﷺ عن ولادة كل مولود على الفطرة ، وكون أبويه بعد ذلك يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه . ومن المعروف أنّ ممّا يتمشى مع هذه الفطرة الصافية النقية قبول حمل الأمانة .

٤ – من المعروف أن ربّ العزّة قد أخذ علينا نحن البشر جميعا ، ونحن فى عالم الذّرّ العهد بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له . وقد جاء فى سورة الأعراف[2] قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا.أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرّية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾. وجاء فى سورة يس[3] قوله تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنّه لك عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم** ﴾.

٥ – وبالإضافة إلى كلّ العوامل السّابقة التى تهيّىء الإنسان لقبول حمل الأمانة ، شاءت رحمة الله تعالى التى وسعت كل شىء أن تتعهّد هذا الإنسان بنعمة النّبوة والرّسالة كلما أخذ فى الانحراف عن سواء الصراط . وإنّ هذه النعمة قد شملت

---

(١) سورة الرّوم ٣٠ – ٣٢
(٢) الآية ١٧٢ ، ١٧٣
(٣) الآية ٦٠ ، ٦١

كل أمم الأرض . وقد قال تعالى[1] : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ **وإنْ مِنْ أمّة إلاّ خلا فيها نذير** ﴾ . وقد توّجت نعمة النبوة والرّسالة على البشرية ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين وأشرفهم محمد بن عبد الله ﷺ ، النور المبين ، والسراج المنير ، ورحمة الله المهداة ونعمته المسداة .

وهكذ يتبين أنّ هذه الآية الكريمة قد بينت ضخامة الأمانة التى رضى الإنسان الظلوم الجهول بقبول العرض عليه بحملها ، وإنّ الآية الكريمة التالية تبين المواقف الرّئيسية الثلاثة لعباد الله تعالى من هذا الحمل الثقيل . كما أنّها تفتح باب الأمل على مصراعيه لكلّ عباد الله تعالى ، عن طريق التنبيه إلى باب التوبة إلى الله تعالى المفتوح على مصراعيه إلى أن تطلع الشمس من مغربها كما جاء فى الحديث الصحيح ، إيذاناً بقيام الساعة. وتختم السورة الكريمة بتقرير حقيقة رحمة الله تعالى التى وسعت كل شيء ، فما أجدر عباد الله تعالى أجمعين ، ألاّ يحرموا أنفسهم حظوظها من رحمة الله تعالى البر الغفور الرّحيم ، الذى وسعت رحمته كل شيء . قال تعالى : ﴿ **ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما** ﴾ .

إنّ الآية الكريمة لتشير إلى المواقف الرّئيسية للعباد من الأمانة ، مبتدئة بأسوئهم موقفا ، وهم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . وهذا النوع من الناس أشدّ على الأمة الإسلامية خطرا من المشركين ، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله[3] ، لأنّ المنافق يستطيع أن يتغلغل فى أحشاء الأمة المسلمة . وينقل أسرارها إلى أعدائها من إخوانه الكافرين أمثاله . وقد نصّت الآية الكريمة على العذاب الذى سيصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات : «ليعذب الله المنافقين والمنافقات » واللام فى: ليعذب لام الصّيرورة لأنّه لم يحملها لأن يعذب،

---

(١) سورة النحل ٣٦

(٢) سورة فاطر ٢٤

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٥٢٤

لكنه حملها فآل الأمر إلى أن يعذب من نافق وأشرك ويتوب الله على من آمن[1] وقيل : إنّ اللام للتعليل[2] يقول القرطبى مثلا[3] : اللام فى ليعذب متعلقة بحمل ، أى حملها ليعذب العاصى ويثيب المطيع ، فهى لام التعليل ، لأنّ العذاب نتيجة حمل الأمانة .»

وقد تحدّثت هذه السورة الكريمة عن المنافقين كثيراً ، كما أشارت إلى عذاب الله تعالى لهم إذا شاء أو توبته عليهم . قال تعالى[4] : ﴿ **ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم. إن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾ وإنّ هؤلاء المنافقين والمنافقات إن لم يتوبوا إلى الله توبة نصوحا ، فإنّ مصيرهم إلى الدّرك الأسفل من النار . جاء فى سورة النساء قوله تعالى[5] : ﴿ **إنّ المنافقين فى الدّرك الأسفل من النّار ولن تجد لهم نصيرا . إلاّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما** ﴾ .

وإذا كان باب التوبة مفتوحا للمنافقين الذين هم فى الدّرك الأسفل من النار ، فمن باب أولى أن يكون هذا الباب مفتوحا لمن يقلّون عنهم سوءا ، شريطة أتحقق فيهم شروط التّوبة النصوح . وإنّ الآية الكريمة لتنص على عذاب الله تعالى للمشركين والمشركات . وقد جاء فى حق الإشراك مع الله تعالى غيره الذى لا يغفره الله تعالى مطلقا قوله عزّ من قائل[6] : ﴿ **إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما** ﴾ وقوله عزّ من قائل[7] : ﴿ **إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾ . إن الإشراك مع الله تعالى سواه ، هو الذنب الوحيد الذى لا يغفره الله تعالى ، فأهم شروط توبة المشركين الإقلاع عن هذه البلية بالكلية . إنّ سورة

---

(١) البحر المحيط ٢٥٤/٧

(٢) الكشاف ٥٥٢/٢ وتفسير القرطبى ص ٥٣٤٠

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٣٤٠

(٤) سورة الأحزاب ٢٤

(٥) سورة النساء ١٤٥ - ١٤٧

(٦) سورة النساء ٤٨

(٧) سورة النساء ١١٦

الفرقان مثلا ، فى آياتها الكريمات التى تتحدّث عن صفات عباد الرّحمن[1] قد عيّنت أهم شروط التوبة النصوح فى حق كل المذنبين ، ومنهم المشركون مع الله تعالى غيره ، والمرتكبون لكبائر الإثم والفواحش التى يستحقون عليها العذاب الأليم . لقد جاء فى صفات عباد الرحمن قوله تعالى[2] : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرّم الله إلاّ بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحا فأولئك يبدل الله سياتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما. ومن تاب وعمل صالحاً فإنّه يتوب إلى الله متابا** ﴾

وإنّ هؤلاء المذنبين إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبة نصوحا ، يتحقق فيهم وعيده جلّ وعلا فى قوله : ﴿ **ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات** ﴾ .

وإذا كان باب التوبة بفضل الله تعالى مفتوحا لمرتكبى كبائر الإثم والفواحش ، فمن باب أولى أن يكون الباب مفتوحا لمرتكبى لمم الذنوب من الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة . ونحب أن نبين أن الجزئية الكريمة تكرر بصريح التعبير لفظ الجلالة « الله » ولا تستغنى عن هذا اللفظ الصريح . علما بأنه جاء فى الجزئيتين السّابقيتن بصريح اللفظ مرة واحدة فقط . إنّ ذكر لفظ الجلالة مرة واحدة بشأن عذاب المنافقين والمشركين الذين يجمع بينهم السياق فى استحقاق العذاب . وإنّ انفراد المؤمنين والمؤمنات بقبول الله تعالى توبتهم فى الآية الكريمة : ﴿ **ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ مع تكرير لفظ الجلالة « الله » وعدم الاستغناء عنه كما هو واضح ، ليدل دلالة قوية على كون المسلمين لله رب العالمين ، بقيادة المصطفى ﷺ ، أمة قائمة بذاتها ، كما يدل على أنّ الكفر ملة واحدة وأمة واحدة . ونحن فى حقيقة الأمر بصدد درس قرآنى بليغ مفاده أن المسلمين لله ربّ العالمين أمّة مستقلة قائمة بذاتها . وهذه الحقيقة تعنى أنّ على هذه الأمة أن تتعاون فيما بينها على البرّ والتقوى ما وسعها التعاون امتثالا لأوامر الله تعالى ، وقد حذرهم القرآن من عدم

---

(١) سورة الفرقان ٦٣ - ٧٧

(٢) سورة الفرقان ٦٨ - ٧١

التعاون فيما بينهم ، وعدم جعل هذه الأمة حقيقة واقعة ، وهى التى أراد الله تعالى لها أن تكون مستقلة قائمة برأسها .

إنّ كون بعض المؤمنين أولياء بعض ، يجب أن يكون حقيقة واقعة بنصّ القرآن الكريم،مقابل كون بعض الكافرين أولياء بعض.وإنّ المؤمنين لم يترجموا ذلك إلى عمل ، ملك الكافرون مقاليد الأمور ، وأفسدوا فى الأرض ، وقطّعوا أرحامهم . جاء فى هذه المعانى قوله تعالى فى سورة الأنفال[1] : ﴿ **إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدّين فعليكم النصر إلاّ على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلاّ تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** ﴾ وقد قال تعالى[2] : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** ﴾ وحبل الله تعالى هو دين الإسلام الذى أكمله الله تعالى ورضيه لنا وأتم به النعمة علينا .

إنّ الآية الكريمة تنصّ على قبول الله تعالى توبة المؤمنين المتقين وذلك فى مقابل عذاب الله تعالى للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات إذا أصروا على نفاقهم وكفرهم . وتختم السورة الكريمة بتعميق توبة الله تعالى على المؤمنين والمؤمنات ، بالنصّ على مغفرة الله تعالى ذنوب المذنبين ، مهما كانت ذنوبهم كبيرة شريطة تحقّق شروط التوبة ، وبالنص على رحمته جل وعلا التى وسعت كل شىء : ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ لذنوب المؤمنين والمؤمنات . بستره عليهم ، وتركه عقابهم عليها ، رحيما أن يعذبهم عليها بعد توبتهم منها »[3] .

إنّ على جميع عباد الله تعالى أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين مؤمنين متقين ، تائبين عابدين حامدين سائحين راكعين ساجدين آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر حافظين لحدود الله . قال عز من قائل[4] : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيّها المؤمنون**

---

(١) الآية ٧٢ ، ٧٣

(٢) سورة آل عمران ١٠٣

(٣) تفسير الطبرى ٤١/٢٢

(٤) سورة النور ٣١

لعلكم تفلحون » وقال تعالى[1] : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾ . قال تعالى : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها . يا أيُّها الّذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما . إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنّه كان ظلوما جهولا . ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ .

---

(١) سورة التحريم ٨

(١٧)
بين الحقيقة والجمال

إنّك بتدبرك لهذا الوجود ، تتبين فيه يقينا قوله تعالى[١] : ﴿ ما ترى فى خلق الرّحمن من تفاوت ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وأنت تستطيع أن تتبين أنّ كلّ شيء فى هذا الوجود ، يقوم بدوره الذى نيط به ، وهو ما يمكن أن نسميه بالحقيقة ، ويرتبط بذلك قدر نسبى من الجمال ، يتفاوت الناس فى تقديره . ولا يخرج عن هذه القاعدة شيء واحد ، بما فى ذلك تلك الحشرات التى يرتبط بها الأذى ، وتعافها أنفسنا من أجل ذلك . فلو أنا تدبرنا شكلها ، والكيفية التى تقوم فيها بدورها ، لتبين حظها النسبى من الجمال ، بصرف النظر عن طبيعة ذلك العمل وما يرتبط به من أذى فنفور من جانبنا . فعلى سبيل المثال ، إنّ شاعراً عظيما كالمتنبى ، يصف خيل جيوش المسلمين بقيادة على سيف الدولة الحمدانى فى حربه مع الرّوم ، وقد شالت تلك الخيل بأذنابها لفرط نشاطها وحماسها وحيويتها ، وصهلت دليلا على كرمها ومرحها وأصالتها . وقد رفع الفرسان عليها أسنة رماحهم ووجهوها إلى خصومهم ، إيذانا بالاستعداد التام ، لأن يسطوا[٣] قلب جيش الأعداء وأن يطعنوهم بها فى المقابل ، ويضربوا منهم كلّ بنان . وقد وجد لهذا النشاط والقوة ، ومعروف أن القوة فى حدّ ذاتها ضرب من الجمال ، وجه شبه فى العقارب المعروفة بالنشاط الدّائب ، وشولها بأذنابها دليلا على ذلك النشاط وتلك الحيوية .

---

(١) سورة الملك ٣

(٢) سورة القمر ٤٩

(٣) القاموس « وسط » ووسطهم كوعد وسطا (بسكون السين) وسطه (بكسر السين) جلس وسطهم كتوسطهم . وفى سورة العاديات « فوسطن به جمعا »